القرن السابع

7

1 – ابن الصباغ
2 – القرطبي
3 – ابن الأثير
4 – ابن الفارض
5 – الواسطي
6 – ابن عربي
7 – أبو الحجاج الأقصري
8 – أبو السعود بن أبي العشائر
9 – ابن الحاجب
10 – ابن البيطار
11 – أبو الحسن الشاذلي
12 – العز بن عبد السلام
13 – ابن أبي أصيبعة
14 – ابن سبعين
15 – جلال الدين الرومي
16 – نصير الدين الطوسي
17 – أحمد البدوي
18 – مرزوق اليماني
19 – القباري
20 – القزويني
21 – المرسي أبو العباس
22 – ابن النفيس
23 – البيضاوي
24 – البوصيري
25 – الديريني
26 – ابن دقيق العيد
27 – ابن عطاء الله السكندري
28 – تقي الدين بن تيمية

هـذا القـرن

وتبدأ المائة الهجرية السابعة بعام 1204 ميلادية ، ونظرة شاملة إلى أحـوال هـذا القرن السابع تؤكد أن النواحي السياسية والاجتماعيـة ازدادت سـوءا ، وأن الدولـة الإسلامية أصبحت اسما بلا مضمون بعد ضياع الكثير من أراضيها في الـشرق أو في الغرب ؛ حيث لم يبق ما يحافظ عليها سـوى مـصر في عـصر المماليـك ، ومملكـة بنـي الأحمر بغرناطة ، وتضاعف انهيار هذه الدولـة الإسـلامية بـسقوط بغـداد في أيـدي التتار ... وكان لابد أن يحدث كل هذا في ظل هذه الحروب المشتعلة فيها بين إمارات الدولة الإسلامية وممالكها ، فيشغلها عن الأخطار المحدقة بها شرقـا حيـث التتـار ، وغربا حيث ممالك أوروبا المحيطة بالأندلس التـي تتحفـز لاسـترداد أراضـيها مـن المسلمين . ولم يستطع أن يقف أمام هذا الزحف التتاري على الـشرق الإسـلامى إلا مصر في الشرق ؛ حيث وقف سلطانها «قطز» أمام زحف التتار ، أو بني الأحمر الذي ضم ما بقي من الأندلس للمسلمين مكونا دولة بني الأحمر في مواجهة الفرنجة.

ويضاف إلى ذلك : أن الحالة العلمية كانـت سـيئة أيـضا ، فلـيس هنـاك تقـدم علمي يذكر ، وليس هناك إعمال للعقل حتى ينـتج ويبتكـر ، وإنـما كـل مـا هنالـك تلخيص لما ترك الأجداد ، وطبيعي أن يزيد العداء للفلـسفة ورجالهـا حتـى أصـبح الأخذ بها يتم خفية ، حتى لا يتعرض من يطلبها للسجن أو النفي أو القتل .

كذلك ساءت الأحوال الدينية ، فقـد تـضاعف جمـود المـسلمين العقائـدي إلى جانب جمودهم الفقهي ، وزاد نفوذ الصوفية ، خاصة بعد ظهور قطبيهـا الكبـيرين : «السـيد أحمـد البدوي» والسـيد « إبراهيم الدسوقي » في أوساط العامـة ، وظهـور

«ابن عربي» و«جلال الدين الرومي» في الأوساط العلمية ، وبالتالي .. زاد نفوذ الدولة الباطنية ، وزاد خضوع العلماء لهذه الاتجاهات الصوفية ، والأكثر شيوعا ، ومنها الرهبنة في الإسلام ، والانصراف عن العمل .

أحداث كثيرة كلها تدل على الانهيار التام في الأحوال ؛ الأمر الذي كان يتطلب مجددا إسلاميا يصلح ما أفسده السابقون ، وفي الوقت نفسه يدرك التحول الخطير الذي كان يحدث في التفكير العالمي بعد الثورة على الاتجاه النظري المحض في العلم والفلسفة ، هذه الثورة التي مهد لها «روجر بيكون» - الذي استفاد من الفلسفة الإسلامية لأوروبا - طريق السيادة على العالم حين نبهها إلى فائدة العلم التجريبي . **أقول** : إن المسلمين كانوا في حاجة إلى مجدد يدرك خطورة هذا التحول ليسير بالمسلمين في الطريق الصحيح، مجدد يصلح حال الأمة ويعلو على الخلافات الطائفية التي لا يقرها الإسلام ، وينبه إلى الحقد الأوروبي الممض على الإسلام في القرون الوسطى ، ويخرج العالم الإسلامي من هذه الخانقاوات الصوفية ، ويحميه من جهل واستبداد، وتسلط حكام، جهلا بالذي كان أخطر عليه من الطامعين فيه من الخارج.

صحيح .. لقد ظهر في هذا القرن مجددون ، ولكن كان تفاقم المشكلات يمنع وصول كلماتهم إلى قلوب المسلمين ، ولا أدل على ذلك من أن فقيها عالما مفكرا مثل «ابن تيمية» يقضي معظم سنوات حياته في السجن إلى أن يموت فيه ؛ بسبب جهاده من أجل وصول كلمته .. ويظهر «ابن دقيق العيد» الذي قام بشيء من الإصلاح ، ويظهر «العز بن عبد السلام» الفقيه العالم و«الإمام القرطبي» صاحب التفسير العظيم، و«ابن الحاجب» اللغوي الكبير ، و«عمر بن الفارض» الشاعر : سلطان العاشقين .

هذا إلى جانب ظهور «محيي الدين بن عربي» وتفكيره الراقي في الصوفية ، وتأثيره فيمن بعده من فلاسفة على مدى قرنين ، حتى إن «دانتي» نقل عنه تصوراته في الكوميديا الإلهية .

باختصار .. لم يكن في هذا القرن أية ميزة سوى تواجد هذه السلسلة الكريمة من المجددين من علماء وأدباء ولغويين وفقهاء .. وغيرهم ممن جعلوا لحياة الذين يتصلون بهم معنى، بل وأثروا الحياة العلمية والفكرية والدينية، من خلال أفكارهم، على الرغم من صعوبة وصول هذه الأفكار إلى من يريدها .

أقول : إن هؤلاء المجددين كانوا حقا وصدقا مفخرة لهذا القرن أو أي قرن . ولكن هيهات أن تصل أفكارهم إلى جمهور المسلمين ! ولعل الصفحات التالية، تقدم لنا التعليل الثقافي المطلوب لهذه المعادلة الصعبة !

ابن الصباغ

شيخ التصوف المصري في القرن السابع الهجري ، أو الحسن بن الصباغ القوصي، حيث توفي عام 612 هـ ، ولهذا فهو من مجددي هذا القرن ، ومن اسمه نستدل على بعض جوانب شخصيته في المجالين : العلمي والاجتماعي .

ففي المجال العلمي : نجد أنه ينتسب إلى مدينة قوص بصعيد مصر وهي- كما يقرر المؤرخون والجغرافيون ، وفي مقدمتهم الشريف الإدريسي- أنها كانت عاصمة فعلية للصعيد منذ عصر الدولة الفاطمية إلى أواخر حكم المماليك لمصر . وقد كانت لهذه المدينة مكانة عظيمة على امتداد هذين العصرين : الفاطمي والمملوكي ، في نواح كثيرة ، منها : الدينية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، إلى درجة أنها كانت تقف على قدم المساواة مع حواضر الدولة الإسلامية وعواصمها ، مثل : القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق، وحلب ، وبغداد .. وغيرها .

وكما يذكر الباحث «محمد عبده الحجاجي» في كتابه : (شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر الإسلامي) : أن الرحالة والجغرافيين العرب قد صوروا عظمة مدينة قوص فأفاضوا في وصف جوامعها ، ومدارسها المختلفة التي كانت إبان تلك الفترة منارا للثقافة ، ومشعلا للعلم ، وملتقى للمعارف التي يقصدها الباحثون والدارسون وطلاب العلم من كل صوب وحدب .

ومثل هذا التقدم الذي حققته هذه المدينة في ميدان العلم ، حققت تقدما في ميدان الاقتصاد ، فحفلت بالأسواق العديدة ، والمتاجر الكبيرة ، وامتهن أهلها الحرف والصناعات ، كالنسيج ، والحياكة ، والصباغة .

وطبيعي .. أن يكون نتيجة هذا التقدم والازدهار الذي عاشته هـذه المدينـة أن تكون ملتقى للعديد من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية ، ووجهة لأهـل التجـارة والصناعات الخفيفة من مختلف البلاد .

وطبيعي أيضا .. أن يتأثر أهلها بهذا التقدم العلمي والاقتصادي الذي ترك أثره – ولاشك – على الناحية الاجتماعية . ويكون من بين هؤلاء : شيخنا أبو الحسن بن الصباغ القوصي. فنراه يستفيد من هذا المناخ العلمي – سواء من أهله في المدينة نفسها ، أو من الوافدين عليها من الحواضر الإسلامية المختلفة – استفادة مباشرة ، أو غير مباشرة .

وأما عن بقية اسمه «ابن الصباغ» فنسبة إلى صباغة المنسوجات التي اشـتهر بهـا والده بين بلدان الصعيد .. ومن العجيب : أن أبا الحسن – وهو الابن الأكبر ، الذي كان يفترض أن يرث هذه المهنة عن والده – كان لا يقبل عليها ، وإذا كان يـصاحب والده فـي الذهـاب إلى المصبغـة فإنمـا ذلك امتثـالا لطاعة والده . أما عنه فقد كـان يتحين الفرص للهروب منها إلى حلقات الوعظ والدرس التـي كـان يقيمهـا رجـال التصوف وعلماء الدين بمدينة «قوص». ولعل والده قد لاحظ ذلـك كثـيرا ، فكـان يحزن لانصراف ابنه عن هذه الصنعة التي يود أن يورثها له . إلى أن كان هذه الحادثـة التي يرويها «محمد عبده الحجاجي» في كتابه فيذكر: «أنه بينما كـان جميـع العـاملين في حانوت الصباغة غارقين في عملهم إذ بأبي الحسن يأخذ جميع المنسوجات والملابـس المطلوب صباغتها، ويطرحها في وعاء واحد معد للون واحد من الصباغة، ويلمحـه والده، فيصيح فيه ناهرا إياه وقائلا: لقد أتلفت ثيـاب النـاس ، قاصـدا هـذه الثيـاب المراد صباغتها، فيخرج المنسوجات والأثواب من الوعاء ليظهر أن كل ثوب قد أخذ اللون الذي أراده صاحبه ! ويقف الوالد وأبناؤه والعمال مـأخوذين أمـام مـا رأوا ! وهنا يتركونه لحاله بعد أن تأكد لهم ما هو مائل إليـه مـن سـلوك الطـرق الـصوفية ،

لتبدأ شهرته من هذه الواقعة : الصباغ ، وتنتقل هذه الواقعة من مكان لآخر ويذاع حديث الصباغ على أنه من الصالحين ..».

ويشب ابن الصباغ في هذه البيئة المتميزة عما حولها في صعيد مصر ، يضاف إلى ذلك أنه وجد في أسرة على بسطة من الرزق، حتى إذا مر قطب الصعيد: «عبد الرحيم القنائى» بالمدينة كان الصباغ أول من رحب به ، وتحمس له ، وأخذ عنه . ولعل القنائى قد أدرك فيه هذا الولع بالمعرفة ، والحب للطريق الصوفي الذي ألهمه الله إياه، فقربه إليه ، وأفاض عليه من علمه وفتوحاته حتى نضج فيما بدأ وأحب ، إلى درجة أن أستاذه القنائى قال عنه ذات يوم : «لقد دخل أبو الحسن الصباغ من باب ما دخلناه»، قاصدا أنه اتبع الطريق الصحيح للصوفية .

ولعل عبد الرحيم القنائى كان ينزله منزلة .. خاصة بين تلاميذه وأتباعه ، وإلا فما معنى أن يقول عنه : «لو لم يكن من أصحابي إلا الشيخ أبو الحسن الصباغ لكفى من سائر الأمم . ولئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» . ومعنى هذه العبارة التى سجلها الأدفوي في كتابه (الطالع السعيد) : أنه لو اقتصر كل أصحابه وتلاميذه ومريديه على ابن الصباغ وحده لكان ذلك يكفيه ، فهو كرجل واحد أعز من كل النفائس الممكنة» ، وهذا تقدير من شيخه ليس بعده تقدير.

وطبيعى .. أن يكون لهذا التقدير من القنائى صداه عند الصباغ ، فنراه- كما يسجل المؤرخون- يهجر رباطه بمدينة «قوص» ليقيم في رباط أستاذه القنائى بمدينة «قنا» بعد وفاته . ويبقى فيه بقية حياته مضطلعا بنشر تعاليم الصوفية في صعيد مصر، فيلتف حوله الناس ، يأخذون على يديه المعارف ، ويغترفون من فيض علمه ، وانتقلت إليه رئاسة تربية المريدين بعد القنائي ، فكان في ذلك خير خلف لأعظم سلف .

وكان في تربيته وتعليمه لتلاميذه ومريديه مثلا طيبا للغيرة على الدين ، ورفض البدع والأباطيل ، ولعل التاريخ يذكر له أنه قد حارب الشيعة الذين يتغلغلون في

مختلف مدن صعيد مصر فرارا من اضطهاد الأيوبيين ، وحارب في عنف معتقداتهم الباطنية ، وكان له دور فعال في إخماد نار الفتنة التى اشتعل أوارها بين المسلمين والنصارى في إقليم قوص ، إلى جانب ذلك كله أنه كان داعيا للخير قيما على الأخلاق ، ناهيا عن الفحشاء والمنكر ، وغير ذلك من الفضائل .

وهكذا .. وعاش ابن الصباغ حياة حافلة بالعلم والتصوف ، إلى أن مرض في أخريات أيامه، فكان يعوده التلاميذ والمريدون والأصحاب المقربون، فكانوا يلقونه على حالة من التصوف والرضا بقضاء الله ، والتشوق إلى ملاقاته عز وجل . حتى إن أحدهم سمعه ، كما يذكر الأدفوي في كتابه (الطالع السعيد) يهمس وكأنه يحدث نفسه قائلا : «سألت ما الذي بي فقيل لي : ابتليناك بالفقر فلم تشك ، وأفضنا عليك النعم فلم تشغلك عنا ، وما بقي إلا مقام أهل الابتلاء لتكون حجة على أهل البلاء..» . وكان هذا هو حاله حتى فاضت روحه في عام 612 هـ .

مات هذا الشيخ الطيب تاركا مذهبا يقوم في جانبه النظري على الحب الإلهي ووحدة الوجود ، وقد روي عنه من الأشعار في الحب الإلهي :

بقائي فناء في بقائي من الهوى ... فيا ويح قلبي في فناء بقاؤه
وجودي فناء في فناء فإنني ... مع الأنس يأتيني هنيئا بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سرا بسره ... أتاك المنى يوما أتاك فناؤه

ومما روي عنه أشعار في وحدة الوجود ، حيث يقول :

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد ... وأفنيتني عني فعدت مجردا
وكلي بكل وصل محقق ... حقائق حق في دوام تخلدا
تفرد أمري فانفردت بغربتي ... فصرت غريبا في البرية أوحدا

وكما يذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» في موسوعته الصوفية : أن هذا الشيخ لم يجد اضطهادا له بسبب مذهبه في وحدة الوجود كالذي تعرض له من قبل الشيخ «ابن عربي» ، لأن طريقته عن التصوف يقول فيها : ليس لأحد على في هذا الطريق منة إلا الله ورسوله ... وفي تعليمه للمريد يقول : لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية من الله عز وجل ، ولن يصفو بالك إلا بخدمة الأولياء، ولن تكون لك حالة شريفة، إلا بملازمة الموافقة ، ومعانقة الأدب ، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين ، وخدمة الصادقين . والذاكر لله تعالى لا يقوم له في ذكره عوض ، والعارف من توافقه معرفته في الأوامر ولا تخالفه في شيء من أحواله ، والسنة التي لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هي : الزهد في الدنيا ، وسخاوة النفس ، ونصيحة الخلق . ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه . وعلامة محبة العبد لله أن لا يؤثر عليه شيئا سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار ، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار ، والسعيد من أعطاه الله قلبا وبصرا معبرا ، وأذنا تسمع من الله ، ونفسا تنشط في خدمة الله..».

* * *

القرطبي

انصرف جهد الإمام القرطبي : أحد مجددي القرن السابع الهجري إلى فكرة متحضرة مؤداها : أن التطور والاتساع في انتشار كتاب الله الكريم ، لابد أن يواكبه جهد متزايد في مجال تيسير فهم معاني وأهداف هذا الكتاب ، لجمهور المسلمين وعامتهم ، فضلا عن خاصتهم ، وذلك لمساعدتهم على حسن تدبر معانيه وإدراك أهدافه ، ومن ثم تلاوته حق التلاوة .

لقد وصف حجة الإسلام الإمام : «أبو حامد الغزالي» شروط هذه التلاوة الحقة فقال : «تلاوة يشترك فيها اللسان والعقل والقلب .. فحظ اللسان من هذه التلاوة تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل منها تدبر المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ بما في هذا الكتاب الكريم من زجر وأمر ونهي .. فاللسان يرتل ، والعقل يتدبر ، والقلب يتعظ ..».

ومن هنا .. أصبح على المسلمين في كل مكان وزمان أن يكثروا من تلاوة آيات هذا الكتاب الكريم ويتدبروا معانيه ، ويفسروها للناس ، حتى يدرك قراؤه ، ومرتلوه ، والآخذون بأحكامه معانيه وأهدافه ، ومراميه ومقاصده .

ولذلك .. فإن بين هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تفسير أحكام القرآن الكريم في العصر الوسيط «أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي» ، صاحب (تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم) .

والحق أن المؤرخين لا يعرفون تأريخا محددا لميلاد هذا العلامة المفسر ، وإن كانت الآراء قد أجمعت على أنه ولد في قرطبة - إحدى مدن الأندلس - مابين عام

580 هـ حتى عام 595هـ ، إلا أنهم حددوا تأريخا لوفاته بمنية ابن خصيب «مدينة المنيا» الآن بالوجه القبلي في مصر كما يقرر «الزركلي» في كتابه (الأعلام) بأنه رحل من قرطبة بالأندلس إلى بلاد المشرق في عصر ملوك الطوائف ، واستقر بمنية ابن خصيب إلى أن توفي ليلة الاثنين التاسع من شوال عام 617 هـ الموافق عام 1273 ميلادية ، ودفن في هذه المدينة من صعيد مصر .

ويتفق مع كتاب (الأعلام) للزركلي ، كتاب (نفح الطيب) «للمقري» في جزئه الثاني الخاص بالتعريف بمن رحل عن بلاد الأندلس إلى بلاد المشرق ، ومنهم القرطبي رضي الله عنه .

ويرى كل من «ابن فرحون» في (الديباج المذهب في معرفة أعلام المذهب - أي مذهب مالك) ، و«المقري» في كتاب (نفح الطيب) أن القرطبي كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين ، الورعين الزاهدين في الدنيا ، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه ، وعبادة ، وتصنيف .

ومن أبرز مؤلفاته (تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم) .

وهو كتاب كبير يحتوي على عدة مجلدات ، بعض المؤرخين يذكرون أنها خمسة عشر ، وآخرهم الأستاذ «توفيق الحكيم» الذي أعد كتابا تحت عنوان : (مختارات من تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن) ذكر أنها عشرون مجلدا . وهذا التفسير الذي قام به القرطبي يعد من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، أثبت بدلا منها أحكام القرآن، واستنبط أدلته، وذكر القراءات ، والإعراب والناسخ والمنسوخ ... وغيرها . وسوف نعود إلى منهجه في هذا الكتاب وموضوعاته بعد أن نذكر بقية كتب ومؤلفات هذا العلامة الكبير ، ومنها : كتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) وكتاب (التذكرة بأمور الآخرة) وكتاب (شرح التقصى) وكتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة ، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة) . والذي قال عنه

ابن فرحون بأنه لم يقف على تأليف كتاب أحسن منه في بابه وموضوعه . وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي -ﷺ- وله تواليف وتعاليق مفيدة .

ومن سمات القرطبي : هذا المفسر الكبير أنه كان مطرحا للتكلف ، فلا يتصنع ولا يتكلف في أمر من الأمور ، وإنما كان رجلا بسيطا متواضعا يمشي بين الناس كما تذكر الروايات التاريخية : بثوب واحد ، وعلى رأسه طاقيته ، لا يغيرهما قط إلا لغرض النظافة ، أو عندما تبليان .

وعن كتابه (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان) يقول في تقدمته: «إنه الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الأولياء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكلته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها . وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار فقال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[1] خاطب به أولياء الله ففهموا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا ..» .

وعن تفسيره للقرآن يقول القرطبي : «رأيت أن أشتغل به مدى عمري ، وأستفرغ فيه منتي ، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما تذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعا بين معانيها ، ومبينا ما أشكل منها بأقاويل السلف ، ومن تبعهم من الخلف ، وعملته تذكرة لنفسي ، وذخيرة ليوم رمسي ، وعملا صالحا بعد موتي ..».

(١) الأنعام : ٣٨ .

ويسجل في منهجه لهذا التفسير العظيم شرطا مهما هو إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث على مصنفيها ، حيث يقول : «من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ؛ حيث لا يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا ، لا يعرف الصحيح من السقيم . ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جمل من ذلك ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ، إلا ما لابد ولا غنى عنه للتبيين والتوضيح . فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين مسائل يتبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير الغريب والحكم . فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل» .

وهكذا .. كان منهجه – رضى الله عنه – في التفسير الذي أنفق فيه سنوات من عمره ، حتى توفي في (مدينة المنيا الآن) ، وله فيها مقام يعرف باسمه .

* * *

ابن الأثـير

«ابن الأثير» : يطلق هذا الاسم على ثلاثة إخوة من جزيرة ابـن عمـر هـم مـن أشهر علماء العرب ومؤلفيهم .

1- أكبرهم «مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد»، ولد عام 544 هـ (1149م) وتوفي بالموصل عام 606 هـ (1310م). أما فيما يتصل بتاريخ حياته ، فقـد درس النحو على يد «ابن الدهان» في الموصل ، والحديث في بغداد، ثـم اتـصل بخدمـة الأمير «قيماز» الذي كان يحكم البلاد مدة طويلة من قبل «سيف الدين غـازي»، وتولى ديوان رسائل خليفتى غازي «مسعود بن مودود» و«نـور الـدين أرسـلان شاه» . على أن أخاه يحدثنا بأنه تردد في قبول هذا المنـصب الرفيـع ، ولم يقبلـه إلا نزولا على إرادة «نور الدين» ؛ ثم عرض له مرض كف يديـه ورجليـه ، ويقـول «ابن خلكان» : إنه ألف معظم كتبه ، إن لم يكن كلهـا ، وهـو عـلى هـذه الحـال. وجعل من منزله رباطا للمتصوفة .

2- وولد الأخ الثاني «عز الدين أبو الحسن على بن محمد» عام 555 هـ في الجزيـرة ، وتوفي في الموصل عام 630 هـ ، أي : إنه من مجددي القرن السابع الهجري وهـو صاحب الكتاب المشهور (الكامل في التاريخ) الذي يستـشهد بـه كثـيرا في هـذه الدائرة ، وصنف كذلك تاريخا لأتابكة الموصل ، كـما صـنف معجـما مرتبـا عـلى حروف الهجاء عن الصحابة ، عنوانه : (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ولخـص كتاب (الأنساب) «للسمعاني» بعنوان : (لب اللباب)، وجـاء الـسيوطى بـدوره فوضع مختصرا لهذا الكتاب عنوانه : «لب اللباب» . وأهم مؤلفاته جميعا كتابه في التاريخ الذي انتهى بحوادث عام 628 هـ ؛ وهو مصنف له قيمة عظيمة .

وتلقى عز الدين العلم في الموصل وفي بغداد ، كما رحل إلى بلاد الشام ، ووقف بقية حياته على العلم الذي انقطع له .

3- وولد الأخ الثالث «ضياء الدين أبو الفتح نصر الله» عام 558 هـ في الجزيرة وتوفي عام 637 هـ ببغداد . وترجع شهرته على الأخص إلى أنه كان من أصحاب الأساليب . أما كتابه في البلاغة (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) فيعد من أهم المراجع في العالم الإسلامي ، وقد ذكر مؤلفاته الأخرى «ابن خلكان وبروكلمان» . وهو على خلاف أخيه المؤرخ ، عاش عيشة كلها نشاط وحركة ؛ قدمه «القاضي الفاضل» إلى «صلاح الدين» ، واتصل بخدمته عام 587 هـ وسرعان ما أصبح وزير الملك «الأفضل بن صلاح الدين» . ولما انتزعت دمشق من الملك الأفضل فر «ضياء الدين» بكل مشقة إلى مصر في صندوق مقفل. وظل مختفيا حتى استقر الملك الأفضل في سميساط التي عوض بها عن ملكه السابق . ولكن ضياء الدين لم يمكث بها سوى مدة قصيرة ، ثم اتصل بخدمة صاحب حلب ، ولم يطل مقامه هناك فغادرها سعيا وراء حظه إلى الموصل ، ثم إلى إربل .

كتب الإنشاء لصاحب الموصل «ناصر الدين محمود» . وتوفي أثناء إحدى رحلاته لبغداد . أما ولده «شرف الدين محمد» ، فقد كان أيضا مؤلفا . توفي في ريعان شبابه عام 622 هـ (1225م).

إذا .. الأخ الأوسط واسمه «عز الدين أبو الحسن علي بن محمد» هو ابن الأثير الذي نقصده على الأرجح ، وهو من مجددي القرن السابع . وقد أخذ ابن الأثير عن شيوخ عصره بالجزيرة والعراق والشام ، فسمع بالموصل من خطيبها «أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي» ، وسمع ببغداد من «أبي القاسم يعيش بن صدقة» الفقيه الشافعي و«أبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي» ، وسمع بدمشق من زين الأمناء وغيره .

وعاش ابن الأثير منقطعا إلى العلم تحصيلا وتدريسا وتصنيفا ، وربما استفسره صاحب الموصل في بعض الشئون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد ، كما يؤخذ من قول ابن خلكان : «وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل » .

وقد روى عن ابن الأثير غير واحد من جلة العلماء : فابن خلكان يصرح بأنه عندما لقيه في صباه بحلب لازمه وتردد عليه، ويقول في ترجمته «أبو محمد التستري»: «وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه ...» . وممن روى عنه أيضا «الشرف بن عساكر وسنقر القضاعى» اللذان يقول فيهما صاحب (طبقات الشافعية الكبرى) : «إنهما من أشياخ أشياخه».

ولاشك أن كتاب (الكامل) الذي يقع في اثنى عشر جزءا أجل تصانيف ابن الأثير وأشهرها، وكان كل اعتماده في الأجزاء السبعة الأولى منه على الطبري، وقد اختصر الطبري فحذف الأسانيد وترك الإسهاب ، واكتفى بالرواية الواحدة ، على أن ذلك لم يمنعه من أن يستمد من مصادر أخرى: «المبرد والبلاذري والمسعودي» ما ترك الطبري عن قصد أو غير قصد ، وذلك مثل أيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري ، وغزو العرب السند ، ... إلخ .

وأما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع ابن الأثير في تأليفها بكل المصادر العربية التى وصلت إلى يده ، لذلك يعتبر كتابه بحق : خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة 628 هـ .

وبعد : فابن الأثير مؤرخ يمتاز بشدة التثبت فيما ينقل ، بل قد يسمو أحيانا إلى نقد المصادر التى يستمد منها ، وله استدراكات وجيهة على الطبري والشهرستاني وغيرهما من العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم .

ولهذا ولغيره من أسباب كثيرة .. اعتبره المؤرخون من مجددي القرن السابع الهجري .

* * *

ابن الفـارض

عمر بن الفارض : سلطان العاشقين ، وإمام الزاهدين ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري .

وفي هذه الصفحات القليلـة ربما نستشعر معنى الزهد في متاع الدنيا بما فيهـا من جاه وسلطان ، فما الدنيا كما يقـول القـرآن الكـريم : ﴿ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] ، ونستشعر أيضا معنى قوة النفس عندما تقوى على النفس ذاتها ، فتترفع عما يشينها ويخجلها ، فلا فائدة لإنسان يخسر نفسه حتى ولو كسب العالم ، ونستشعر فيها كذلك معنى الولاء للإنسان ... أي إنسان من أي عقيدة أو جنس أو لون .. فالكل أبناء آدم ، وآدم من تراب ..

هذه المعاني جميعها يمكن أن نلتقي بها عند الحديث عن هذا الرجل الـصالح .. عمر بن الفارض .

وعمر بن الفارض أو : سلطان العاشقين كما يحلو أن يلقبه دارسوه ومؤرخوه.. كان شاعرا صادق الحس ، رقيق النفس ، مرهـف الـشعور . وكـان إلى جانـب هـذه الصفات التي اجتمعت لديه صوفيا من أصحاب الرياضات والمجاهدات الروحية ، وكان مع هذا كله محبا ، امتلأ قلبه بأعمق معـاني الحـب ، وتعلقـت جوانحـه بـأروع آيات الجمال ، وكانت حياته الروحية مرآة صادقة انعكست على صفحاتها كل ما كان يحتدم في باطنه في انفعالات عميقة ، وما فاض به قلبـه مـن عواطـف شريفـة ، ومـا امتلأت به نفسه من أحاسيس صادقة .

(١) الحديد : ٢٠ .

ولم يكن محبوب الشاعر الصوفي عمر بن الفارض الذي تغنى بحبه ، ورتل أنشودته ترتيلا طويلا ، وسبح بجمال ذاته وصفاته تسبيحا جميلا ... لم يكن مخلوقا من هذه المخلوقات، أو بشرا إنسيا أفاضت في وصفه كتب الأدب والأدباء ، وفاضت بتصوير صفاته القصائد الطوال أو القصار، وإنما كان حبه منصرفا جملة وتفصيلا إلى الذات الإلهية .

لقد انتهى سلطان العاشقين عمر بن الفارض إلى أقصى ما ينتهى إليه عاشق في حبه للذات الإلهية ، فأعانه شعره على التعبير عن هذا الحب تعبيرا صادقا رائعا ، هو أدل ما يكون على شوقه ورقة مشاعره ، وما لهذا الحب الإلهي من دوافع ، وما له من منازع ، وما عليه من معان .. وما ينتهي إليه من نتائج روحية سامية .

هذا الشاعر الصوفي الذي اتخذ من هذا الحب الإلهي مصدر إلهام لأحاسيسه وأفكاره وتصوراته ، حتى لقب بسلطان العاشقين . ولد بالقاهرة في مصر سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة . وعاش في رعاية أبيه الذي كان يشغل منصبا كبيرا عند الملك العزيز . وما زال يرعى ابنه بالعلم والدرس صغيرا ، وينشئه على التقوى والصلاح غلاما يافعا ، حتى إذا صار في عمر الشباب دفعه إلى الاشتغال بالفقه ثم حبب إليه أن يسلك طريق الصوفية ، وأن يتزهد ويتجرد ، وأن ينظر إلى الدنيا على أنها حقا وصدقا متاع الغرور .

حتى إن أغلب الدراسات التي عنيت بترجمة حياة هذا الشاعر الصوفي - وفي مقدمتها دراسة كل من الدكتور «محمد مصطفى حلمي»، والدكتور «سعد عبد العزيز» - ترجعان هذه الشفافية، والعلم الواسع، والورع المنقطع النظير، وغيرها من سمات تميز بها عمر بن الفارض إلى هذه النشأة الأولى التي وجهها هذا الوالد المثقف .

بل إن هناك من الدراسات التى تربط بين هذه النشأة وبين ما أخذ ابن الفارض به نفسه من شدة ، حيث كان يمارس حياته الجديدة بالتوجه إلى جبل المقطم بالقاهرة

والاستقرار فيه بوادي المستضعفين ، حيث كان يخلو بنفسه خلوة تامة ، ويصوم فيها عن الطعام والشراب والكلام عدة أيام قد تبلغ العشرة ، ثم يعود بعدها ليستأنف حياته العملية من جديد .

وعلى هذا النحو .. كانت رياضة ابن الفارض الروحية التي ظل يقوم بها بانتظام وعلى الدوام من الشباب إلى الممات .

وإذا كان لموطنه المتمثل في بيته وأسرته دخل كبير في نشأته ، فإن لموطنه الكبير – المتمثل في مصر وعلمائها وفقهائها ، وما كان يجري فيها وقتئذ من أحداث – دخلا أكبر وأهم .

لقد عاش هذا الشاعر الصوفي في عصر كله قلق واضطراب ، بسبب ما كان ينشب من حروب صليبية تسببت في إجهاد مصر اقتصاديا على مدى سنوات طوال ، وقد كان لهذا أثره أيضا على الحياة الفكرية في ذلك الوقت ، حيث اتخذت طابعا دينيا يمتاز بنزعته الروحية الصوفية ، وبالتالي .. صار التصوف نوعا من السمو الروحي والطريق الذي يدفع الإنسان إلى التجرد من آثار العصبيات الدينية والطائفية ، حيث أصبح لا مكان لهذه العصبيات بين أبناء الوطن الواحد الذي ينبغي أن تتضافر جهودهم في مواجهة خطر يتهددهم جميعا .

هذا إلى جانب أن روح هذا العصر بوجه عام قد انعكست على مذاهب الصوفية التي كانت سائدة وقتئذ في غير مصر ، ومنها مذهب : (وحدة الوجود) الذي نادى به المفكر العربي المسلم «محيي الدين بن عربي» كما رأينا من قبل ، ومنها أيضا (الحكمة الإشراقية) التي نادى بها أيضا السهروردي .. وكانت نظرة هذين المذهبين تفصح عن احترام الأديان الأخرى غير الإسلام ، لأن الدين لله ، وأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الجميع . وأن الغاية التي يسعى إلى تحقيقها أي دين سماوي تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وفي ضوء ذلك التفسير استطاع المصريون أن يتفوقوا على ظروفهم ، وأن يتخذوا من

التصوف وسيلة لرياضة النفوس على التسامي والتسامح والترفع عن الصغائر . والالتزام بالنظرة الواحدية للأديان .. ذلك أن الأديان إن اختلفت في شعائرها وطقوسها وأشكالها ، إلا أنها تتفق جميعا في أهدافها وغاياتها .

ويقرر الدكتور «سعد عبد العزيز» اتصال ابن الفارض بمحيى الدين بن عربي، وتأثره بفلسفته التى تنادي بوحدة الوجود ، كما أخذ عن السهروردي حكمته في الإشراق التى تقوم على نظرية الفيض الإلهى حيث يقول : «فعند ابن الفارض أن المتصوف يتحرق شوقا إلى معرفة الحقيقة العليا، والنور الأسمى ، وما يصدر عنه ، فالشوق هنا إنما هو الدافع الذي يدفع المرء إلى الاتصال بخالقه . حتى يرى في جواره ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من مشاهدة النور الحق ، والانغماس في أمواجه، فإذا خلصت النفوس من كل ما يعلق بها من أدران وشوائب، فإنه في مقدورها أن تكشف كل ما يجري وراء الحجب من خفايا وأسرار..».

وبهذا التفكير .. ذاع صيت سلطان العاشقين عمر بن الفارض في العالم الإسلامى، وطبقت شهرته الآفاق كشاعر متصوف له نظر فلسفى ، إلى درجة أن الملك الكامل كان ذات يوم يتجاذب أطراف الحديث مع نخبة من علماء وفقهاء وأدباء زمانه ، فجرى بينهم على غير قصد ذكر عمر بن الفارض بهذه الكيفية التى شدت إليه انتباه العالم الإسلامى ، وقد أخذ الحاضرون في مجلس الملك يذكرون مآثره أمام الملك، سواء في الشعر أو في التصوف أو في الفلسفة، ويذكرون أيضا زهده في الدنيا ، وعزوفه عن مغرياتها ، واختياره الاختلاء بنفسه بعيدا عن البشر ، حتى يتمكن من مضاعفة التعبد صياما وقياما ، تطهيرا لنفسه من كل الأدران والشوائب حتى يتقرب إلى الله .

وينصت الملك الكامل مهتما إلى كل هذا ليصيح قائلا : «مثل هذا الصالح العظيم يكون في زماني ولا أزوره . لابد لي من رؤيته وزيارته» ، وينهض متجها إلى الأزهر الشريف في جماعة من أمرائه لهذا القصد .

ولم يكد ابن الفارض يحس بقدوم هذا الركب الملكي قاصدا زيارته ، يتأكد له هذا الأمر ، بدخولهم من الباب الرئيسى للأزهر .. حتى يتحاشى لقاءهم ، ويخرج من باب آخر ، ولا يبيت ليلته بالقاهرة ، حيث يغادرها إلى الإسكندرية ، رغبة منه في عدم إتمام هذا اللقاء زاهدا في كل ما ينتج عنه من مكاسب أو فوائد .

وفي الإسكندرية ، يعيش هذا الصوفي الجليل بجوار منارها عيشة الكفاف ، حتى يستقر به المقام في مسجد أقيم هناك عاكفا على قراءاته وكتاباته وتعبده .ويقال إنه في هذا المسجد الصغير كتب قصيدته المشهورة التي سماها «التائية الكبرى» وهي المتضمنة لطبيعة تصوفه وفلسفته ونظريته في الحب الإلهي .

غير أن هذا الشاعر الصوفي لا يطيب له المقام طويلا بالإسكندرية بعد أن أصابته العلة وهو بعيد عن مسقط رأسه القاهرة ، هذه العلة دفعته دفعا إلى العودة إلى القاهرة التي لا يستطيع فراقها أكثر من ذلك ، وفي ظروف حالته الصحية الأخيرة .

وبالفعل .. عاد إلى القاهرة ، ولكن كان مريضا ، ويبدو أن العلة قد تمكنت منه إلى درجة أنه ظل ملازما للفراش ، حتى إذا بلغ الملك الكامل نبأ مرضه ، راح يستأذنه في زيارته مع طبيبه الخاص ، فلم يجد من ابن الفارض إلا الاعتذار والشكر .

لكن المرض تشتد وطأته على الجسد العليل ، والملك يعود مرة ثانية طالبا الاستئذان له بالزيارة ، فيشكره معتذرا ، وهنا يجعل الملك مبعوثه يستأذن عمر بن الفارض في إقامة ضريح له يلائم مقامه الجليل ، فيشكر له هذا الكرم . وظل في مكانه لا يبارحه حتى وافته منيته . فيدفن هناك تحت سفح المقطم ، كغيره من أبناء الشعب الصالحين .

* * *

الواسطي

مؤسس الطرق الصوفية المعروفة بالرفاعية في مصر : العارف بالله «أبو الفتح الواسطي» ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث ولد بالعراق في النصف الثاني من القرن السادس وتوفي عام 632 هجرية .

وقبل التعرض لشخصية وأفكار أبي الفتح الواسطى : مؤسس الطرق الصوفية بمصر ، وجد القطب «إبراهيم الدسوقى» صاحب الطريقة الدسوقية بمصر ، وهى الطريقة الصوفية المحلية بها ... ينبغى أن نلقى ضوءا على هذه الطرق التى انتسب إليها الكثيرون في القرن الهجري السابع ، فقيل : إنه قرن الطرق الصوفية بوجه عام، فما مداه ؟ وما تأثيره على وجه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بمصر تحديدا ؟

الحق .. أن بعض العلماء والباحثين العرب قرنوا انتشار الطرق الصوفية بتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بوجه عام ، وإذا نظرنا إلى القرن السابع تحديدا في مصر ، نجد أن هناك بالفعل تدهورا في هذه الأحوال جميعا ، فما تفسير ذلك ؟

لعل أحد الباحثين الأجانب ، أشار إلى ذلك بوجه عام ؛ حيث رأى أن ذيوع التصوف يصحبه تدهور في الحضارات . ويضرب مثلا على ذلك بما حدث في الهند القديمة ، وفي العالم الروماني والإغريقى ، وفي القرون الوسطى في ألمانيا ، وفي القرنين : السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في فرنسا ، فقد خبت الرغبة الصحيحة في الحياة لدى بعض الموهوبين ذوي العقول النبيلة ، والمشاعر المرهفة ؛

حيث انقطع الرجاء في حياة مستقلة ممتعة . إن كره هؤلاء للعالم المادي والحضارات يأخذ بمجامع قلوبهم ، وإن رغبتهم في الخير المطلق تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد لتخليص أنفسهم وحريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع .

ويتفق مع هذه النظرة التى ترى أن انتشار الطرق الصوفية يقترن بتدهور في الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عدد من الباحثين ، في مقدمتهم الدكتور «عامر النجار» ، حيث رأى أن التصوف العلمي - أي : تصوف أصحاب الطرق الصوفية - جاء مواكبا لضعف الحضارة الإسلامية . ويتفق هذا مع الدكتور «سعيد عبد الفتاح عاشور» الذي رأى من قبل أن الرغبة في العزلة والعودة إلى الله لا تقوى إلا في ظلال الضعف : فقليل من الناس يتذكر «الله» في قوته وصحته وشبابه وثرائه ، وكثير منهم يذكرون الله في ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم . ولهذا.. يقرر الدكتور عامر النجار أن تصوف الطرق الصوفية قد ازدهر ونما في عصور ضعف الأمة الإسلامية في القرن السابع الهجري ، ومن عجيب الأمور .. أن الحكام في هذا القرن كانوا يشجعون المصريين على ذلك ، ويتركونهم ينضمون إلى الطرق الصوفية كما يريدون ، حتى ينشغلوا عن فساد هؤلاء الحكام . ولهذا .. كان القرن السابع الهجري أكثر القرون اضمحلالا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، مع أنه كان أكثرها تميزا بوجود الطرق الصوفية ، وظهور عدد من العلماء والأولياء الصالحين ؛ حيث ظهرت الطرق الصوفية والبدوية والشاذلية والدسوقية ، وقويت طريقتا : الرفاعية والقادرية إلى جانب ظهور عدد من المجددين على امتداد العالم الإسلامي .

وإذا كان للشيخ أحمد الرفاعي فضل في نشر حركة الصوفية من العراق إلى كل أرجاء العالم الإسلامى ، فقد كانت هناك شخصيات تتلمذت على يديه بالعراق ، وصار لها الفضل أيضا في نشر هذه الصوفية في العالم الإسلامي، من هذه الشخصيات البارزة في تاريخ هذه الطرق . شخصية الشيخ أبي الفتح الواسطي ، مؤسس الطرق

الصوفية بمصر على وجه التخصيص ، حيث وفد إلى مصر من العراق ، وأقام بالإسكندرية ، وبشر بها .

وكما يرى الدكتور «عامر النجار» في كتابه : (الطرق الصوفية في مصر .. نشأتها ونظمها وتطورها) أن هذه الشخصيات الصوفية كانت وراء دفعة ونمو حركة الطرق الصوفية في مصر في القرن السابع الهجري ، إما بطريق مباشر أو بغير مباشر . وفي مقدمة هذه الشخصيات : «عبد السلام بن مشيش» ، و«أبو مدين التلمساني» المتوفى عام 594 هجرية هو أستاذ «عبد الرازق الجزولي» ، والجزولي هو شيخ ومعلم كل من «عبد الرحيم القنائي» ، و«أبي الحجاج الأقصري» ، وهما من أقطاب التصوف في مصر ، كما أن أبا مدين التلمساني، أستاذ وشيخ عبد السلام بن مشيش، وأستاذ ومربي «أبي الحسن الشاذلي» صاحب الطريقة الشاذلية بمصر ، والذي سيأتي الحديث عنه في الصفحات التالية من هذا الكتاب .

وقد توفي الواسطي بمدينة الإسكندرية ، ودفن بها حوالي عام 632 هجرية.

وطبيعي .. أن يظل مكان الواسطى في زعامة الطرق الصوفية شاغرا . إلى أن يختار من بعده «السيد أحمد البدوي» صاحب الطريقة البدوية المعروفة ، أو كما يسجل الأستاذ «علي سالم عمار» في كتابه عن أبي الحسن الشاذلي حيث يقول : «إنه لما وصل خبر وفاة الواسطي إلى خلفاء الرفاعي بالعراق : مركز الدعوة والطريقة الرفاعية ، وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوي ليخلفه في الزعامة بمصر ، فوصل مبعوثا من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة 635 هجرية ، وفي هذا تقدير كبير لمركز الواسطي ومكانته ... » .

والجدير بالذكر .. أن «السيدة فاطمة» أم السيد «إبراهيم الدسوقي» صاحب الطريقة الدسوقية أو البرهامية .. هي ابنة الشيخ أبي الفتح الواسطي ، الذي أدى دورا كبيرا في التخطيط لإقامة واستمرار الطرق الصوفية في مصر . ويرى المؤرخون

أن أبا الفتح قد تصور - إن لم يكن قد خطط - أن يكون حفيده السيد إبراهيم الدسوقي شيخا كبيرا كمثل شيخه الأكبر : السيد «أحمد الرفاعي» .

ومن هنا.. يمكن القول اتفاقا مع المؤرخين لهذه الطرق بأن أبا الفتح الواسطي، وأبا مدين التلمساني ، وعبد السلام بن مشيش كان لهم الأثر في بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها ، وانطلاقها في القرن السابع الهجري - قرن التصوف في مصر - حيث ازدهرت حركة الطرق الصوفية كما رأينا ، ولاقت تشجيعا من الحكام . وفي هذا القرن أيضا ظهر أهم أعلام الصوفية .

والجدير بالذكر .. أيضا أن الواسطي - وهو من مواليد بلدة واسطة بالعراق ، والذي توفي بالإسكندرية عام 632هـ قد لاقى التقدير والتكريم من أهل مصر ؛ فبنوا له مسجدا بالإسكندرية ، وضريحا لقبره يزار .

ذلك ؛ لأن مصر لم تنس كعادتها الذين أعطوا حتى ولو كانوا من البلاد العربية الشقيقة . بل إنها تنزلهم منزلة أبنائها ، لا فرق بينهم . ولهذا وغيره من الأسباب ، نجد الصالحين يهرعون إليها من المغرب والمشرق .. الكل يريد أن يعيش فيها ، ويدفن في ترابها .

* * *

ابن عربي

أبو بكر محمد بن علي بن عربي ، الشهير باسم : محيي الدين بن عربي ، والمعروف بمذهبه في وحدة الوجود ، والملقب بالشيخ الأكبر ، أحد مجددي القرن السابع الهجري ، والذي كان في معاملاته ظاهريا ، وفي عقائده باطنيا ، والذي بلغت مؤلفاته المائتين ، أشهرها كتاباه : (الفتوحات المكية) و(نصوص الحكم) ، حيث عبر فيهما عن مذهبه الصوفي في وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، والحقيقة المحمدية ، تعبيرا يمتزج فيه النظر الفلسفي ، بالذوق الصوفي ، ومن هذه المؤلفات المائتين مؤلفات فلسفية وأدبية يتقدم الأخيرة منها ديوانه الشعري (ترجمان الأشواق) ، وهو تصوير رمزي لأشواقه في الحب الإلهي .

لقد نظر هذا المجدد إلى سلوك الصوفية ، فوجده يتجنب الشهوات والملذات ، ويرمي إلى طهارة الجسم وصفاء النفس ، وهو أسلوب عمل وتأمل : عمل يقوم على المجاهدة والمجالدة وبذل النفس والمال في سبيل الله ، وتأمل في آياته الله وأسرار الكون وهو أخيرا : فقد وجود.. فقد للعاجل ، ووجود للآجل .. فقد للفاني ووجود للباقي .. فقد للعبد . ووجود للرب . فوجد هذه الصوفية ذات مبادئ وأفكار كلها تسمو بالإنسان .

ولقد نظر إلى عقائد الصوفيين التى كانت حتى أيامه كامنة ضمنا في أقوال مشايخها وأقطابها ، وسأل نفسه : لماذا لا تتخذ هذه العقائد شكلا صريحا ؟ . وحين استطاع الإجابة عن هذا السؤال أصبح الشارح الأعظم للصوفية ؛ فمن خلاله استطاع العبد الباطن للإسلام أن يعبر عن نفسه بصراحة .

إذا .. فأهمية ابن عربي ومجالات تجديده كما يذكر الدكتور «سيد حسين نصر» تكمن في صياغته للمعتقدات الصوفية وجعلها صريحة . هذه الصياغة التي تدل على حاجة البيئة التي كانت موجهة إليها ، ذلك أن الحاجة للإيضاح لا تزداد مع توافر المعرفة للإنسان ، بل إنها لتصبح ضرورية بقدر جهل الإنسان وفقدانه للقدرة على الفهم المباشر للأشياء .. كذلك .. كلما ابتعد التمدن الإسلامي عن منبع الوحي ازدادت الحاجة إلى الإيضاح. لقد كان مجرد الإشارة أو التلميح كافيا بالنسبة للأجيال الأولى لفهم المعاني الباطنية للأشياء . لكن أهل القرون اللاحقة باتوا في حاجة إلى الإيضاح المسهب . ومن هنا ، من خلال ابن عربي قدمت الباطنية الإسلامية العقائد التي استطاعت وحدها أن تضمن صيانة التراث الصوفي في أوساط قوم كانوا دائما عرضة لخطر الضلال بسبب الاستدلال غير الصحيح ، حتى إن ما كان يعرف بالحقيقة الباطنية للتصوف اتخذ على يد ابن عربي شكلا جعله يتحكم في الحياة الروحية والعقلية في الإسلام ، وتلك هي أهمية ابن عربي ومجال تجديده .

وللتأكيد على جانب من تجديده ، نقرأ معا عرض أهم مؤلفاته وهو كتاب : (الفتوحات المكية) هذا الكتاب فتح الله به على الشيخ محيي الدين بن عربي «مؤلف يحتوي على أربعة مجلدات كبار تقع في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة » ، ويندر من يمكنه أن يلم بهذا الكتاب في فصل أو في جملة فصول ، لأنه - والحق يقال - كالبحر الزاخر في علوم الحقائق والتصوف، وأحكام الشريعة ممتزج بعضها ببعض. ولا ريب في أن هذا الكتاب قد ألف بإلهام ، ولا يمكننا أن نتعرض لتفسير بعض ما جاء فيه من الآراء نثرا وشعرا مما انقسم جمهور المسلمين بسببه فرقا ، فمن قائل : إن المؤلف له شطحات ، ومن قائل : إنه كتب ما أراد برموز وألغاز ، يدركها أربابها للوهلة الأولى.

ومن قوله شعرا في مفتتح الكتاب : البيتان المشهوران اللذان يحتج بهما قوم من الفريق الأول وهو قوله :

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف؟
إن قلت عبد، فذاك سمت ... أو قلت رب أنى يكلف!

ومن الفصول المهمة في هذا الكتاب، الفصل: «في علم الحق وعلم الأحوال وعلم الأسرار»، وفصل في: «اعتقاد أهل الاختصاص»، وفصل في: «معرفة الروح».

ويقرر محيي الدين في فاتحة كتابه: أنه قبل بدايته في تأليف هذا الكتاب قد كلف بوضعه من ذي مقام عظيم، ثم قال: «ثم أظهرت أسرارا وقصصت أخبارا لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها فتركتها موقوفة على رأس منبعها، خوفا من وضع الحكمة في غير موضعها».

وبجانب الفصول التي ضمنتها الأسرار والرموز، فصول جلية ظاهرة في أحكام الشرع مثل: فصل الوضوء وأحكامه، وأسرار الطهارة، وأفعال الصلاة، بتوسع وإسهاب لا مثيل لهما في أي كتاب آخر من كتب هذا العلم.

وتكلم في الجزء الثاني عن: منازل الأولياء، ومقام أهل المجالس وحديثهم ونجواهم، وفي حظ الرسل من ربهم ومقامهم من مقام الأنبياء، ومقام الأنبياء من الأولياء، وفي هذا الفصل تفصيل بين نبوة الشرائع والنبوة المطلقة، فهم من الأولياء إذا كانوا أنبياء شريعة من الدرجة الثالثة، وإن كانوا في النبوة اللغوية فهم في الدرجة الثانية، وأن الأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة: الهوى، والنفس، والدنيا، والشيطان. والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبي.

ومن الرسل من لهم خصائص على أمتهم، ومنهم من لا يختصهم الله بشيء دون أمته، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أي خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الإلهي، ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة، ولهذا قال في نبي

الشرائع :﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[1]. أي ما هو ذوقك يا موسى مع كونه كليم الله، فخرق السفينة ، وقتل الغلام حكما ، وإقامة الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهي ، كخسف البلاد على يدي جبريل ومن كان من الملائكة ، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمنين من الملائكة ، وأنبياؤهم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء .

وبعد أن أفاض المؤلف في تفصيل النبوة وأسرارها وأحكامها، تكلم في: الحب، والسكر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والتقوى ، ومقامي الخوف والرجاء ، والفرق بين الشهوة والإرادة ، وشهوة الدنيا وشهوة الجنة ، والفرق بين اللذة والشهوة ، ومقام الخشوع والقناعة ، والتوكل واليقين ، ومقام الذكر وأسراره ، والفكر وأسراره .

ثم تكلم في أسماء الله الباطن منها والظاهر ، وفي الأسماء على العموم ، وانتقل إلى الكلام في حضور القلب بتواتر البرهان ، ومنزل الحوض وأسراره من المقام المحمدي ، ومنزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية .

وفي الجزء الثالث من الكتاب أفاض المؤلف في الكلام على الحضرة الموسوية والحضرة المحمدية ، وتكلم على منزل الإمام الذي على يسار القطب ، وهو منزل أبي مدين أحد أئمة الصوفية بالأندلس وهو ممن لم يلقهم محيي الدين .

ثم تكلم على : المهدي المنتظر ، وفي معرفة نزول وزرائه ، فقال في هذا الجزء : «اعلم أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت جورا وظلما ، فيملؤها قسطا وعدلا ، لو لم يبق من الدنيا يوم واحد ، طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة الرسول يواطئ اسمه اسم رسول الله ، يبايع الناس بين الركن والمقام ، وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف ، أسعد الناس به أهل الكوفة ، يقسم المال بالتسوية ، ويعدل في الرعية ، ويفصل في القضية ، يمسي جاهلا بخيلا جبانا ، فيصبح أعلم الناس وأكرمهم وأشجعهم ، يمشي النصر بين يديه ، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا ، يصلحه الله في

(١) الكهف : ٦٨ .

ليلة بفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفا من ولد إسحاق ، يشهد الملحمة العظمى ، مأدبة الله بمرج عكا ، يبيد الظلم وأهله ، يرفع المذاهب من الأرض ، يفرح به العامة أكثر من الخاصة ، ويبايعه العارفون بالله من أجل الحقائق عن شهود وكشف ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء ، ينزل عليه عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، متكئا على ملكين، يقطر رأسه ماء مثل الجمان ، يتحدر كأنما خرج من دماس ويقبض الله المهدي إليه طاهرا مطهرا ، وفي زمانه يقتل «السفياني» عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بجيشه في البيداء بين المدينة ومكة».

ثم تكلم المؤلف في العرش والهواء والفلك والبرزخ ، وفي معرفة الأمة البهيمية.

أما الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب النفيس ، فبدأه بمعرفة منزلة الميت ، والحي ليس له إلى رؤيته سبيل ، ومعظم هذا الجزء في تفاسير أحاديث قدسية منسوبة إلى الله عز وجل مثل :

1- «من دعاني فقد أدى حق عبوديته ، ومن أنصف نفسه فقد أنصفني».

2- «من سألني فما خرج من قضائي ، ومن لم يسألني فما خرج من قضائي».

3- «أسمائي حجاب عليك ، فإن رفعتها وصلت إلى».

4- «أحبك للبقاء معي ، وتحب الرجوع إلى أهلك».

وهذا الجزء الرابع كالأجزاء الثلاثة السابقة بحر زاخر في الحكمة الإلهية ، والفلسفة الشرعية ، وذكر الأسباب والنتائج والأسرار الباطنية والألغاز العليا في الكون والخليقة والشريعة والوحي والإلهام والولاية والقطبانية .

ولا يليق بعالم أو متصوف أو أديب أن يبقى دون إلمام بهذا الكتاب الذي يعد فريدا في بابه في سائر اللغات .

أما قبر الشيخ العظيم فقد اكتشفه في الشام «السلطان سليم الأول العثماني» ، ويذكرون أن الشيخ كان قد ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه ونصها: «عندما يدخل السين في الشين يكشف عن قبر محيي الدين»، والمقصود بذلك عند دخول السلطان سليم بلاد الشام يكشف قبر هذا الحكيم .

كذلك لمحيي الدين بن عربي مناجاة ، هذا نصها :

قال محيى الدين : « رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ، ولم أكن رأيت نارا ولا حشرا ولا حسابا ولا شيئا من أهوال القيامة ، ووجدت في نفسي راحة عظيمة، فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال ، وأن نفسي ادعت فوق حالها من جهة ما أعطاها الله من العلم ، ولو كانت متحققة بالحق تحققا عقليا مقدسا إلهيا يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ، فأرادت أن تقيم على الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها ، فلم أسمع لها ، ودارت بيني وبينها المحاسبة أو المناجاة الآتية :

ابن العربي : يا نفس ، لا أتركنك على دعواك حتى أعرض أحوالك على كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - ، فإن وافقت ذلك سلمت لك ، وإن وجدتك دون ذلك فأنا ألطف بك وأرحمك بأن أمشى بك على أحوال أهل الصفة وعلى أحوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، فإن قصرت عن شأوهم فالنار أولى بك .

نفسه : أما النبي - ﷺ - فلا أعرض حالي مع حاله أدبا معه ، وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم ، ولكن حبك من دون القرآن والنبوة فخذ معي في مراتب الولاية ، وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة .

ابن العربي : أخرجي أسنى ما تدعين ، وأعلا ما تحفظين ، وأنا أعرض أولا حال أهل الصفة .

نفسه : قل !

ابن العربي : كان سبعون من أهل الصفة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم أسفل من ذلك ، والله ما اجتمع لهم ثوبان ، ولا حضر لهم من الأطعمة لونان ، ناشدتك الله يا نفس ، فهل أنت أفقر منهم ؟

نفسه: لا .

ابن العربي – فلست إذا منهم ، استحي من الله وارجعي على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء!

نفسه: علي بغيرهم فليس لي هنا قدم.

ابن العربي : قال عمار بن ياسر وهو يسير على شط الفرات : «اللهم لو أعلم أن أرضى لك عنى أن أتردى فأسقط فعلت ، ولو علمت أن أرضى لك عنى أن ألقى في هذا فأغرق فيه فعلت . ناشدتك الله يا نفس ، هل خطر لك هذا قط في رضى الله لا تبغين به بدلا ؟

نفسه : لا والله ، فانتقل بي عن هذا !

ابن العربي : هذا عمر بن الخطاب لما أسلم قال له النبى – ﷺ – : «يا عمر ، استره »قال رضى الله عنه : «والذي بعثك بالحق لأعلنه كما أعلنت الشرك » ! «ناشدتك الله يا نفس هل قمت لي قط في دين الله تعالى حامية عنه في موطن دونه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه » ؟

نفسه : الله ، وإنما قاربت هذا المقام ، ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء بحيث إن غلب على ظني الأمن والعافية في دمي .

ابن العربي : فارجعي !

نفسه : نعم ، هات غيره .

ابن العربي : كان عثمان بن عفان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت ، هل فعلت هذا مع أصحابك قط؟ آثرتهم باللطيف وقنعت بالخشن .

نفسه : لا والله ، بل كنت على أحد وجهين معهم ، إن لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه ، وإن كان عندي أرق منه أكلت وحدي ذلك ، مثل الحلو ، وأقول هذا غذاء لين وألبس على نفسي بهذه الترهات حتى لا أتنغص به عند أكله ، وأقول هؤلاء الإخوان في مقام التربية ، فينبغي أن لا أزرع حب الشهوات في قلوبهم بإطعامهم مثل هذا ، ومقامي لا يؤثر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولي إياه فآكله على هذه الحال وقد عميت عن مطالبة الحق ، في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم في خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولاشك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته ، وإنما فعله بعد التمليك .

ابن العربي : بارك الله فيك يا نفس ، إذ أنصفتني .

نفسه : الحق أحق أن يتبع ..هات غيره .

ابن العربي : هذا الإمام علي كان إذا أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمثل في محرابه قابضا على لحيته ويبكي بكاء الحزين وهو يتضرع بقوله : «ياربنا!» ثم يخاطب الدنيا بقوله : «غري غيري ، واخدعي سواي ، فقد تبت عنك ثلاثا ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كثير ، أواه ! من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » ، فهل صاحبت هذه الحال استصحاب هذا الإمام؟

نفسه : لا والله ، إنما هي بوارق تلمع ، وأهلة تطلع ، في أوقات دون أوقات ، والغالب الشتات ، لولا أني أريد أن أقف منك على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة .

ابن العربي : هذا الذي بشرت غير ما مرة أنك في مقامه : أبو بكر الصديق رضي الله عنه خرج حين توفي رسول الله - ﷺ - وعمر يكلم الناس ثم قال بعد أن تشهد : «أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فإن الله حي لا يموت!». ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ**

خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ ﴾[1]. فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ، ناشدتك الله يا نفس ، هل حصلت بالسر الذي تدعينه أنه قد حصل لك من الحق حالا ومقاما من تعظيم الله ما علمت به تعظيم من عظمة الله من جهة تعظيم الله إياه ؟

نفسه : لا والله يا ولي ، إنما أنا بين فناء وبقاء ، وتلاش وانتعاش، وإقبال وإدبار ووصول ورجوع ، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذي خرج من فم الصديق حتى نبهتني عليه ، فانتقل بي عن هذا المقام فقد قصم ظهري .

ابن العربي : إن النبى - ﷺ - عاش في البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر لما أثر شريط السرير في جنبه، فقال عمر : تذكرت كسرى وقيصر، فقال النبى : - ﷺ - أما ترضى أن تكون له الدنيا ولنا الآخرة ؟ «أين أنت يا نفس من قول سلمان الفارسى حيث ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى فقال : إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخولكم لمسك خزائنه ومحمد - ﷺ - حى ، ولقد كان يصح وما عنده دينار ولا مدمن الطعام، بم ذاك يا أخا بنى عبس؟.. فانظري يا نفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبى - ﷺ- وتعريفه وتقريعه بقوله : «بم ذاك ؟» ثم إنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله - ﷺ - وهذه حالته في دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة أن تنال فيها راحة ولا توسعا، هذا وقد رأى أثر حبل القربة في عنقها من حمل الماء وأثر الرحى من الطحين في يديها ، وجاءه السبى فلم ير أن يعطيها خادما يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذي نزل بها ، وأعطاها بدل ذلك تسبيحا وتحميدا وتكبيرا ، وقال : هو خير لكم ، فأين أنت يا نفس وهذا العارف فلا الحق رضيها لنبيه ولا النبى - ﷺ- رضيها لابنته ووصيه . فهل قنعت يا نفس بعد إن لم تجدي لك قدما مع أحد من الصالحين ؟ . فمن اتبعت؟ وبمن تأسيت ؟ » .

(١) آل عمران : ١٤٤ .

نفسه : اتبعت هواي ، فتأسيت بشيطان مدع في المعرفة ، مكب على الدنيا مثلي، فأثمر لي الدعوى ، وعراني من ملابس التقوى ، وأنا أتوب إلى الله وأتضرع إليه في الوفاء والعدل والميزان !

وبعد أن استرسل محيي الدين بن عربي ختم مناجاته بقوله لنفسه :

ابن العربي : فهذا يا نفس من بعض أخبار الذي أحببته لله وفي الله ، ولولا خشية التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين ، ولكنك قنعت بهذا القدر ، فالتزمي طاعة الله وطاعة رسوله - ﷺ -

قال محيي الدين بن العربي : «فأسلمت إسلاما جديدا- يقصد نفسه – الله يثبتها عليه ، وأخذت منها العهود التي أخذ النبي - ﷺ - على نساء المؤمنات ، فالتزمت ذلك كله عارفة قدر ذلك ومالها في الوفاء به ، وما عليها من الرجوع عنه ».

وهكذا .. كان مجددنا الشاعر الصوفي المفكر : محيي الدين بن عربي في مناجاته وتجلياته .

* * *

أبو الحجاج الأقصري

من بغداد بالعراق ، وفد إلى مصر الرجل الصالح : «يوسف بن عبد الرحيم ابن غزي » الشهير بأبي الحجاج الأقصري ليختار مدينة الأقصر مقرا له ولأتباعه ، وليكون واحدا من مجددي القرن السابع الهجري .. ولكن قبل التعرف عليه ، نسجل هذه السطور .

لم يدخل الإسلام الأمم والممالك بحد السيف على ما يزعم أعداؤه ، وإنما دخلوه بالحجة والإقناع ، الحجة بما أتى به من مبادئ وقيم تسمو بالحياة الإنسانية، والإقناع بأن هذا الدين ما جاء إلا لخير الإنسان ونفعه في كل ما دعا إليه من تعاليم وتوجيهات ، أو في كل ما نهى عنه من شرور وآثام .

ولو أن الإسلام كان على هذه الصورة التي رسمها له أعداؤه لما انتشر ، والأكثر لما استقر في القلوب ورسخ في النفوس . وازداد قرنا بعد قرن ، واتسعت رقعته حتى في أمم لم تكن في الحسبان ، فالذي يحصي عدد المسلمين في البلاد الأوروبية والأمريكية والآسيوية اليوم يجدهم وقد تضاعفوا عشرات المرات قبل هذا القرن ، وهو ما يؤكد أن هذا الدين لديه من إمكانية الحجة والإقناع بشكل يجعل الآخرين يدخلون فيه أفواجا على الرغم مما يوجه إليه من افتراءات ، وما يمر به من محن .

ولعل قدرة هذا الدين على الحجة والإقناع ، مضافا إلى ذلك مواكبته لكل زمان ومكان ، جعلته يسود وينتشر بهذا الشكل السلمي ، البعيد عن العنف وإراقة الدماء.

فمن فضائل هذا الدين أنه لا يكره أحدا على الدخول فيه عنوة واقتدارا ، فلا مانع من أن يظل الناس على دينهم ، وأن تظل بعض الأماكن حتى في بلاد الإسلام على دينها ، بعد ظهور الإسلام بمئات السنين ، إلى أن يأتي اليوم الذي يرى فيه أهل هذه الأماكن ، أن الإسلام دين أولى بأن يتبع ، وذلك بالحجة والإقناع ، لا بالقوة والإجبار ؛ فالله عز وجل لم يكره الناس في قرآنه الكريم على أن يؤمنوا ، وإنما دعاهم إلى إعمال العقل فيما يؤمنون به ، والله عز وجل لم يقدم ذاته في ألغاز وأساطير ، وإنما جعل معرفتنا به سبحانه من خلال صنعه في خلقه ، وهذا ما يؤكده كتاب الإسلام : «القرآن الكريم» .

ولهذا وغيره .. لا نجد غرابة في أن يظل بعض الناس في دور الإسلام وبلاده على دينهم . ومتى؟ في أوج عظمة الإسلام وحضارته في العصور الوسطى .

وهذا هو إقليم «طيبة» (الأقصر الآن) بالصعيد خير مثال على ما سبق ، فكما يسجل المؤرخون أن هذا الإقليم بمصر قد بقي على دينه المسيحي حتى بعد ظهور الإسلام بأكثر من ستة قرون ، مع أن مصر دخلت حظيرة الإسلام منذ بداية القرن الهجري الأول ، على ما رأينا من قبل في الفصول السابقة . ومع هذا .. لم يحدث لأهلها أي سوء ممن يحيطون بهم من المسلمين الذين دخلوا في الإسلام ، حتى إذا قيض الله عز وجل من يحبب الإسلام إليهم ، دخلوه مختارين بدون إذعان .

لقد وفد الرجل الصالح «يوسف بن عبد الرحيم بن غزي» المعروف بأبي الحجاج الأقصري (نسبة إلى مدينة الأقصر) من بغداد التي ولد بها إلى هذا الإقليم من صعيد مصر الأعلى ، حيث لم تكن وفادتاه من مسقط رأسه بغداد : حاضرة الخلافة العباسية في عهد الخليفة العباسي «المقتفي بأمر الله» بمحض المصادفة ، بل كانت له في هذه الوفادة رسالة وجب عليها أداؤها - كما يذكر الباحث «محمد عبده الحجاجي» في كتابه : (شخصيات صوفية في صعيد مصر) بعد مراجعة لعدد من

الكتب القديمة في مقدمتها (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و(الكامل) لابن الأثير و(الطالع السعيد) للإدفوي ، وكلها تجمع على أن العارف بالله أبا الحجاج الأقصري قد ترك أثرا عظيما في الأقصر أو : طيبة القديمة سيظل خالدا على مر الزمن ، وهو جهده في نشر الدين الإسلامي بهذا الإقليم ، إذ استطاع أن يغير وجه الحياة في هذه المدينة التي كانت أكبر معقل للكهنوتية منذ فجر التاريخ ، وذلك بنشره الإسلام بين ربوعها ؛ حيث أسلم على يديه الكثير من الرهبان المسيحيين طوعا لا كرها ، وعلى رأسهم «الراهبة ترزة» بنت القيصر ، التي كانت تمثل دعامة قوية من دعائم الدين المسيحي في صعيد مصر ، كما أنه احترم من بقي على دينه المسيحي . وعاش المسلمون والأقباط جنبا إلى جنب في أخوة صادقة تفيض بالمحبة والإخاء، شعارهم: [الدين لله والأقصر للجميع- مسلمين ومسيحيين-] كل ذلك كان بفضل سماحة هذا الرجل الصالح «أبي الحجاج الأقصري» ، ولين جانبه ، وواسع أفقه .

ولا يقل موقفه من هذه المعتقدات التي تفرق بين المسلمين شيعا وأحزابا ، ودوره في القضاء عليها بصعيد مصر ، عن موقفه ودوره في نشر الإسلام في هذه البقعة من مصر . كان ذلك حين رفض كل الآراء والمعتقدات التي من شأنها المساس بسماحة الإسلام الحقيقية ، حين وقف في وجه الشيعة والآراء الباطنية في الصعيد . بعد سقوط الدولة الفاطمية ، ذلك .. لأن أبا الحجاج الأقصري كان سنيا متشددا، ترك أهله وعشيرته ووطنه في بغداد ، حينما انتشرت هذه الفئة واستكبرت ، وأتت بتفسيرات كثيرة ليست لصالح المسلمين . في هذا الإقليم لم يقف منها موقفا سلبيا ، بل حارب دعاتها ومعتنقيها ، ورماهم بالفسوق والعصيان .

ولا تقتصر جهود هذا الشيخ الصالح على هذين الأمرين فحسب ، بل نجد له جهودا متعددة في دفاعه عن الفضيلة ، ومحاربته للبدع والمنكرات ، مما كان له كبير الأثر في ازدهار هذا الإقليم الذي اختاره مستقرا له ، حتى خرج بمجتمع الأقصر

من حياة الخمول والتخلف إلى السعي المتواصل في الدنيا من أجل الآخرة ، فهو من هؤلاء الصوفية الذين يجمعون بين العبادة الحقة والإصلاح الاجتماعي .

وظل أبو الحجاج الأقصري على هذا النحو إلى أن كانت وفاته عام 462 هـ عن عمر يزيد على التسعين عاما . فيكون يوم وفاته مشهودا في الصعيد ، حين تقاطر الناس من كل بلاد الصعيد لتوديعه إلى مثواه الأخير ، حيث دفن بضريحه الكائن بجوار معبد آمون الشهير بالأقصر .

مات هذا الشيخ الصالح بعد أن حفلت حياته بجلائل الأمور ، وفي الوقت نفسه عاصر الصراع الدائر في مصر والشام بين المسلمين والصليبيين ، كما أنه لمس بدء تحرك جحافل المغول الذين أخذوا يتخطفون البلاد الإسلامية في عهد الخليفة العباسي «المعتصم بالله» ، الذي قتل بعد سقوط بغداد . فكان هذا الشيخ «أبو الحجاج الأقصري» يأسى لحال المسلمين ، وما آلت إليه أمورهم بسبب حرصهم على متاع الدنيا أكثر من الآخرة .

ولأبي الحجاج الكثير من الآثار العلمية، غير أنه لم يتيسر للباحثين العثور عليها، كما يذكرون في أبحاثهم ، ولكن النزر القليل من هذه الأبحاث يكفي لمعرفة منهجه وأسلوبه في الدنيا والدين . ومن هذه الآثار العلمية التي أمكن الحصول عليها : (منظومته في علم التوحيد) ، التي ضمنها تسعة وتسعين بابا ، وهي تقع في ثلاثمائة وألف بيت من الشعر ، دافع فيها عن العقائد الإيمانية دفاعا مجيدا ، حيث استهلها بقوله :

الحمد لله العلي الصمد الأول الآخر لا بأمد

وقد تحدث فيها عن ذات الله عز وجل وصفاته ، والدار الآخرة ، والبعث ، والنشور ، والجنة والنار ، كما تعرض فيها للإمامة والخلافة وشروطها ، وغيرها من

موضوعات الدين والدنيا بشكل يكشف عن سعة أفقه ، وغزارة معرفته بالعلوم الكلامية وغير الكلامية .

ومن آثاره العلمية أيضا: كتاباته التي تركها كأقوال مأثورة في الصوفية، ومنها: «من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسى إساءاته وإحسانه، ومهما يكن الحس ومدركات الحس فالعقل هنا مخبول ، وإذا لم يبق حس ولا محسوس انطلق العقل » .

لكن الذي يبقى خالدا من هذا الرجل الصوفي هو منهجه في التربية ، إذ كان من هؤلاء الصالحين الذين أحسنوا تربية التلاميذ والمريدين وفق منهج خاص ، وطريق واضح ، فكان يرى أن للمريد أدبا مع شيخه ، وأدبا مع زميله ، وأدبا مع غيرهما ، ولهذا يقر مؤرخوه أن له مدرسة واضحة المعالم في صعيد مصر ، اتسعت للكثيرين ممن أرادوا التأديب بأدبه وسلوك نهجه في التصوف .

فكما يقول «الإدفوي» في كتابه : (الطالع السعيد) عن هذا الرجل الصالح أبي الحجاج الأقصري وأثره في التصوف : « إنه تخرج على يديه سادات وأكابر ، نطقت بمناقبهم ألسنة الأقلام ، وأفواه المحابر ، ممن له فضل بارع ، وباع في الكرامات واسع ... » .

رحم الله شيخنا أبا الحجاج الأقصري ، وجزاه عن جهده عظيم الثواب ، فقد كان حقا وصدقا رجلا صالحا في كل مراحل حياته .

* * *

أبو السعود بن أبي العشائر

أبو السعود بن أبي العشائر : واحد من مجددي القرن السابع للهجرة .. وفد من العراق الشقيق إلى مصر ؛ ليتخذ منها مقرا يعيش فيه حتى وفاته .

ولعل سيرة حياة هذا الرجل الصالح تؤكد - بصورة أو بأخرى - جملة من الحقائق التى في مقدمتها : أن العالم العربي توحدت أجزاؤه منذ ظهور الدعوة المحمدية في شبه الجزيرة العربية ، حتى أصبح هذا العالم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وأن هذا التوحد قائم - على الرغم مما يحدث من انقسامات سياسية- ما قام لهذا العالم دين واحد ، ولغة واحدة، ومصالح مشترك ، وإلا فما معنى أن نرى هذا الرجل الصوفي الصالح «أبا السعود ابن أبي العشائر» المنصرف تماما إلى عبادة ربه ، صياما وقياما ، وتفكرا وتأملا، يترك بلدته «باذبين» في العراق ، قاصدا دمياط بمصر ، ليقف بين صفوف أبنائها مجاهدا ضد قوى البغى والعدوان ، بكل ما أوتي من حول وقوة ، غير عابئ بما يربطه ببلده بالعراق من ارتباطات ، كل ما يهمه أن ينصر أخاه في الدين واللغة والمصالح المشتركة ضد هؤلاء الذين أتوا إليه من الغرب الأوروبي للقضاء عليه .. إن هذا الرجل الصالح يدرك تماما أن ما يصيب مصر تتأثر له الأمة العربية كلها حتى في أطرافها المتباعدة .

يضاف إلى هذه الحقيقة أمر آخر ، لعله يتصل بسلوكيات رجل التصوف الحقيقى ، المستمد من سلوكيات رجال الصوفية الحقيقيين الذين كانوا يرفضون أن تكون الصوفية انصرافا كليا عن الحياة بكل ما فيها ، أو رفضا بكل ما يتعلق بها من مسئوليات والتزامات ، تفرضها بالضرورة طبيعة الحياة نفسها ، الدائمة التجدد

والتغير ، لا أن يعتزل الناس ويعيش في خلوة معتمدا على غيره في طعامه وشرابه ، ومحاطا بالدراويش والمهاويس الذين يعيشون أيضا عالة على غيرهم ، ظنا منهم أن هذا هو الطريق الصحيح للصوفية ! وغير ذلك من صور خاطئة تسيء إلى الصوفية ورجالها الأوائل أكبر إساءة .. هؤلاء الرجال الصالحون الذين رأوا أن التصوف عمل بغير توقف ، وجهد بغير كلل ، إلى جانب أنه عبادة وتأمل ، لا يصرف أحد المنتمين إليه عن الاعتماد على نفسه ، والاستكفاء بعمل يده ، وإلا فما معنى أن يخرج هذا الرجل الصوفي الصالح أبو السعود بن أبي العشائر في كوكبة من أتباعه ومريديه؛ لينضم إلى صفوف المجاهدين في بلد غير بلده ، ويقطع آلاف الأميال والفراسخ ؟! إلا لإيمانه بأن صوفيته لا تمنعه من مزاولة ألوان الحياة ، ومنها الدفاع عن بلد يربطه به رباط الدين واللغة والمصالح المشتركة .

يضاف إلى هاتين الحقيقتين الباهرتين : أن مصر خاصة كانت منذ مئات السنين – كما هي اليوم– قلب العروبة النابض، وأن ما يصيب هذا القلب من أذى يشل بصورة أو بأخرى بقية بلدان هذه الأمة العربية .. وإلا فما معنى أن ينهض هذا الرجل الصوفي الصالح من إحدى قرى العراق النائية ملبيا نداء الدفاع عن مصر؟!.. وأين ؟! في دمياط . لو لم يع حتى بصورة خام أو حنينية أن مصر تمثل هذا القلب النابض لهذه الأمة التي يراد لها الانقسام ، منذ أن كانت خير أمة أخرجت للناس .

هذا الرجل الصالح : أبو السعود بن أبي العشائر الباذبيني القادم من العراق ليدفن عام 644هـ بسفح المقطم في القاهرة بمصر ، بالقرب من مدفن «ابن عطاء الله السكندري» ، ولد ببلدة باذبين القريبة من مدينة واسط بالعراق ، وجاء مصر في عهد «الملك الكامل» ابن «الملك العادل الأيوبي» ، في وقت كانت جيوش الصليبيين تدق أبواب مصر .

وفي ذلك .. يسجل «الذهبي» في تاريخه أن : جيوش الفرنجة جاءت إلى ثغر دمياط في مائتي مركب محملة بالجنود والعتاد ، ونادى «الملك الكامل» في القاهرة بأن

النفير عام ، «أي التعبئة العامة» معلنا الجهاد في بلاد الإسلام ، لذلك لم ير الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر بدا من التوجه إلى مصر ، والانخراط في صفوف المجاهدين .

وتذكر المصادر التاريخية : أن الشيخ أبا السعود قد أبلى بلاء حسنا في المعارك التي دارت بين المجاهدين من مصر والمعتدين من الفرنجة . وإن لم تذكر بعض هذه المصادر التاريخية الدور الذي قام به الشيخ أبو السعود على وجه التحديد ، غير أن البعض الآخر من المصادر- وخاصة الحديثة - حددت هذا الدور اعتمادا على ما جاء في كتابي : (السلوك) للمقريزي و(بدائع الزهور) لابن إياس ، بأن دور الشيخ أبي السعود كان هو التوعية الدينية ، والحث على الجهاد في سبيل الله ، حتى إنه لم يرجع إلى القاهرة إلا بعد رحيل الصليبيين عن دمياط ، بعد أن عقدوا صلحا مع «الملك الكامل» .

ولا يستهان بدور التوعية الدينية التي قام بها الشيخ أبو السعود في مثل هذه المعارك القائمة أساسا على العقيدة والدين بين الطرفين ، فهو دور واسع المدى ، عميق الأثر في الحرب الحديثة والقديمة معا ، ولا يستطيع أن يقوم به إلا من أوتي القدرة على الإقناع بالحجة والدليل ، وهو ما يعرف حديثا برفع الروح المعنوية لدى القوات المتحاربة كجبهة مقاتلة تستطيع أن تستعيد الأرض ، وتصون العرض .

أما كيف كان هذا الرجل الصالح؟ وماذا عن جهوده في إعلاء كلمة الإسلام . فقد أفاضت في ذلك كتب السير والتراجم، ومنها: (الكواكب السيارة) لابن الزيات، و(الطبقات الكبرى) للشعراني ، و(تحفة الأحباب) للسخاوي ... وغيرها من كتب سجلت أن الإمام الرفاعي : مؤسس الطرق الصوفية بالعراق بشر بمجيئه ، وبأنه سوف ينشأ على العبادة والمحافظة على تعاليم الإسلام ، وبأنه سيكون من المنافحين والمدافعين عن هذا الدين .

وأما عن مكانته في القاهرة ومصر عامة ، فيذكر «ابن الزيات» في كتابه : (الكواكب السيارة) أن إمام القاهرة «أبا العباس القراباغي» كان إذا سئل من أتباعه ومريديه وعن الذي سيحل في قيادة السفينة من بعده ؟ أجاب قائلا : « ليس في الجماعة من يجلس مكاني ، إنما يجلس مكاني رجل يأتي من العراق من بلاط واسط . فيدخل هنا ، ويصلي صلاة الجماعة ، ويجلس بهذا المكان ، ويأخذ العهد ويربي المريدين لدين الله على الإيمان والتقوى » .

وقد صدقت نبوءة كل من «الإمام الرفاعي» و«الإمام القراباغي» ، فما إن مات الأخير ، ونظر أصحابه وأتباعه إلى من سيخلفه ، حتى جاء هذا الرجل الصالح من العراق ومعه أصحابه ، ليؤذن أذان الظهر داعيا الحاضرين إلى الصلاة . وليكون هو الإمام الصوفي المنتظر .

وعن آثاره وأخباره : يحدثنا «الشعراني» أحد المجددين في (طبقاته الكبرى) بأن الشيخ أبا السعود كان من أجلاء مشايخ مصر ، وعظماء أئمتها . وأن «الملك الكامل» وكذا السلطان «نجم الدين الأيوبي» كانا يسعيان لزيارته في زاويته بباب القنطرة – ومكانه الآن : باب الشعرية – كما كان الأعيان وكبار رجال الدولة يسعون إليه طلبا لعلمه وفضله ، وتبركا به كرجل من الصالحين .

ومن مأثور حديث الشيخ أبي السعود هذا القول : «كيف يصح لعابد أن يخلص في عبادته وهو غير عالم بآفاتها ، فإن الهوى روحها ، والشيطان خادمها ، والشرك مركون في طبعها ، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول في خلقتها ، وسوء الظن وما ينتج عن الكبر وقلة الاحترام سمتها ، ومحبة الصيت والاشتهار حياتها .. فكيف يقرب عبد من مولاه عز وجل مع بقاء هذه الآفات ومصالحتها ؟!» .

* * *

ابن الحاجب

ورد في رأي أحد أبناء اللغة العربية المخلصين : جمال الدين أبو عمرو عثمان ابن عمر بن بكر بن يونس الملقب بابن الحاجب أحد مجددي القرن السابع الهجري بأن حياة كل لغة تتلخص في أمرين: ماض له احترامه وقداسته، وحاضر له حاجاته ومتطلباته . وإذا وقفت اللغة عند الماضي وحده كتب عليها الجمود والركود ، وإذا شغلت بالحاضر فحسب ، فقدت أخص خصائصها من الاطراد والاستقراء ، وأصبحت وليدة الهوى والمصادفة ، وأدت إلى كثير من البلبلة .

ولغتنا العربية في كل زمان يعتد أبناؤها بماضيها وحاضرها ، فيتباهون بتراثها الخالد ، ويحرصون في الوقت نفسه على تنميته وتغذيته حتى يواكب الزمن . حتى أصبحت هذه اللغة على أيدي أبنائها المخلصين تمقت الجمود ، وتأبى الفطرة وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه الحاجة . مبدؤها في ذلك مبدأ إسلامي خالص، وهو : لا إفراط ولا تفريط .

ومن بين أبناء اللغة العربية المخلصين لها «ابن الحاجب» جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس : عالم اللغة في القرن السابع الهجري . حيث كانت كتاباته ترى أن للغة العربية ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

فماضيها تراث أدبي من نثر وشعر ، وتراث فكري من علم ودين وفلسفة. وعلى أبناء هذه اللغة مراعاة هذا التراث وتعهده ، وتوجيه النظر إليه ، والدعوة إلى إحيائه.. والأهم استخلاص ما يلائم الزمن ويتماشى معه من هذا التراث . وحاضرها عمل دائم على تطورها ، ومستقبلها أمل في تقدمها حتى تواكب متغيرات المستقبل .

وعلى الرغم من أن ابن الحاجب يقرر أن اللغة العربية لغة حية معبرة ، فإنه في الوقت نفسه يرى أن في الماضى اللغوي عصور ضعف وعصور قوة ، عصور ركود وعصور ازدهار . وتساءل : هل ينبغي علينا نحن أبناء هذه اللغة الوقوف عند القرنين: الثاني والثالث للهجرة أم نتجاوزهما؟ وانتهى إلى القول بأنه ينبغى ألا نقف، بل علينا الاجتهاد ، ذلك لأن اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم - تتطلب منا الاجتهاد حتى تواكب الزمن الذي توجد فيه ، وهو جانب من تجديد هذا العالم اللغوي .

وأما حاضر اللغة كما يراه ابن الحاجب فهو ما تعيشه من مستحدثات ، وما تواجه من مشكلات ، وما تضطلع به من الأعباء ، وما تعبر عنه من الأمور .. حاضر اللغة باختصار هو الحياة في شتى مظاهرها .

والحق أن هذه الرؤية لابن الحاجب ، المأخوذة من كتاباته - بتصرف- رؤية متقدمة على زمانه . لعلها تتفق مع أقوال علماء اللغة في بداية القرن الخامس الهجري، حيث يرون أن اللغة العربية تمتاز عن اللغات اليونانية واللاتينية غربا ، والسنسكريتية والبهلاوية شرقا، وعمرت بمرونتها واشتقاقها حتى استطاعت أن تيسر في الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى ، وأن تؤدي وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة ، مما يشعرنا بأنا نملك حقا لغة نستطيع أن نتصرف فيها ، كما كان يملكها قديما أبناء العروبة في الجاهلية ، ويستخدمونها على حسب ما تقضي به حياتهم وظروفهم .

ونواصل التفكير مع ابن الحاجب ، هذا العالم النحوي المجدد اللغوي لنتعرف عليه وعلى بعض أعماله ، فنجده مصريا ، ولد بصعيد مصر ، وبالتحديد في «إسنا» في الأيام الأخيرة من عام 570 هـ . حيث كان أبوه حاجبا للأمير الكردي «عز الدين موسك الصلاحي» .

حفظ القرآن في القاهرة ، ودرس العلوم المتصلة به كالفقه وأصوله على مذهب الإمام مالك ، إلى جانب دراسته المستفيضة للنحو ، والأدب : شعره ونثره . وكان أهم شيوخه : «الإمام الشاطبي» ، و«الفقيه أبو منصور الأبياري» ... وغيرهما .

رحل من مصر إلى دمشق ، وقضى بها مدة طويلة يلقي دروسه على الناس في الزاوية المالكية بالجامع الأموي ، وكان له طلاب كثيرون ، وعمود ينتسب إليه في هذا الجامع العتيق . ثم عاد إلى القاهرة ليلقي دروسه في الفقه وأصوله بمساجدها، وأخيرا ينتقل إلى الإسكندرية ، ويظل بها حتى وفاته في 26 شوال من عام 646 هجرية .

وأعمال ابن الحاجب أغلبها في الفقه والنحو والعروض . إلا أنه اشتهر بالنحو بوجه خاص ، وهو في هذا الميدان - بالذات - يختلف من عدة وجوه عن أسلافه، كما كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية في مصر، وعقائدها في المغرب . ومؤلفاته واضحة الأسلوب لا تحتاج إلى تفسير . ولعل منها ما يدرس حتى الآن بالأزهر الشريف . من هذه المؤلفات :

- الكافية : وهو كتيب في النحو العربي ، يعد من الأصول في هذا العلم ، وقد طبع عدة مرات بالقاهرة ، وشرح بالآستانة .
- الشافية : وهو كتيب آخر في علم الصرف ، يرجع إليه كل دارس أو باحث في هذا العلم . طبع عام 1805 ، وبالآستانة عام 1850، ونشر في ليبسك عام 1878م .
- «المقصد الجليل في علم الخليل» : وهو منظومة شعرية من بحر البسيط في العروض ، تعين الباحث في أصول هذا العلم .
- «الأمالي» : وهي فصول عن القرآن الكريم ، وتركيباته اللغوية العظيمة . ومختارات من شعر أبي الطيب المتنبي .

- «القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة» : وعنوانها يدل على مضمونها الذي يهتم بالأسماء المؤنثة في اللغة .
- «رسالة في العشر» : وهو بحث صغير في استعمال كلمة «عشر» بضم العين وتسكين الشين – مع الصفتين : «أول» و«آخر».
- «منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل » : وهو بحث مهم في أصول مذهب الإمام مالك ، يوضح دعائم وأسس هذا المذهب ، والاختلاف بينها وبين المذاهب الأخرى .
- «مختصر المنتهى» : ويعرف بالمختصر الأصولي ، وهو موجز للكتاب السابق مع شرح لعضد الدين الأبجي ، وحواش للتفتازاني ، والجرجاني . وقد علق على حاشية الجرجاني «الحسن الهروي» .
- «مختصر في الفروع» أو «جامع الأمهات» : ويعرف بالمختصر الفرعي . وهو موجز في الفقه المالكي مع التوضيح .. وقد قلد هذا الكتاب مؤلفون كثيرون وغيرهما من الأعمال الجادة .

وغير ذلك من مؤلفات وكتابات ، من خلالها اعتبر المؤرخون ابن الحاجب من مجددي القرن السابع الهجري .

* * *

ابن البيطار

«أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين بن البيطار المالقي» عالم الدواء والأعشاب المشهور في التاريخ الإسلامي ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ؛ لابتداعه : علم الدواء من الأعشاب للعلاج ، والذي ينتسب إلى أسرة ابن البيطار المعروفة في مالقة إحدى مدن الأندلس الإسلامية ، والمولود في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، والذي تلقى في هذه المدينة الأندلسية بداية تعليمه حتى انتقل منها إلى بعض المدن العربية حتى توفي بدمشق عام 646 هـ .

وتبدأ قصته مع الدواء حسبما تذكرها دائرة المعارف الإسلامية منذ أن كان يجمع النباتات من رياض إشبيلية في الأندلس ، ويتأمله صورة ولونا وتكوينا إلى أن رحل عن الأندلس إلى شمال إفريقيا ، وبالتحديد مراكش والجزائر وتونس ليبقى هناك فترة قصيرة ، من بعدها ينتقل إلى مصر حيث يتعلم على أيدي علمائها ، ويكون من بين تلاميذه ابن أبي أصيبعة أحد المجددين ، وفي مصر يلتقي بالملك الكامل الأيوبي الذي يهيئ له سبل التقدم في علمه .. إلى آخر ما كتب الأستاذ «رأفت الخياط» بكتابه (الأبناء العظام) .

واستقام المقام لابن البيطار في خدمة الملك الكامل ، بعد أن صدر قرار بتعيينه رئيسا للعشابين .. وهو منصب يتساوى اليوم مع لقب «نقيب الصيادلة» .

وواضح أن ابن البيطار كان يمارس عمله بأمانة وإخلاص ، إلا أن بعض المتاعب جاءته من بعض الذين ما كان يتصور أنهم سيكونون مصدرا لها .

فقد جاءه يوما صديقه صاحب الشرطة ..وطلب منه في ريبة أن يغلق دونهما الباب .. لأنه يريد أن يطلعه على بعض الأسرار .. ورحب ابن البيطار بصديقه صاحب الشرطة .. وتأهب لسماع ما عنده من أسرار .. ولكن صاحب الشرطة مهد لحديثه بعتاب وجهه لابن البيطار ، لأنه أطاح بقريب له من البيمارستان فقاطعه ابن البيطار في غضب : «تقصد ذلك الفتى الغر الذي كان يتلاعب بالمهنة المقدسة .. ويبيع الوهم للراغبين والقادرين على دفع الثمن ؟! وابتسم صاحب الشرطة قائلا : إنه لم يكن يبيع وهما .. بل كان يحضر لنا أعشابا تسعدنا ، وتجعل أوقاتنا كلها نشوة وبهجة .. وابتسم ابن البيطار قائلا : «يبدو أنك كنت واحدا من زبائنه» .. وراح يتأمل ملامح الغضب على وجه صاحب الشرطة .. ثم قال في حزم : «إذا كنت تهدف من وراء كلامك هذا .. أن أصنع لك شيئا من هذه الأعشاب .. فاعلم أنني لن أفعل» .. وهنا فاجأه صاحب الشرطة قائلا : «ولكنني علمت أنك صنعت مثلها للملك» ! وهنا وقف ابن البيطار .. متجاهلا واجب الضيافة لمثل صاحب الشرطة وقال : «هذا كذب .. لا الملك طلب ولا أنا صنعت ، ولن أصنعها لأحد مهما كان موقعه في السلطة» ، وأدرك صاحب الشرطة أنه أمام رجل صلب لا يلين .. فنهض خارجا وهو يتوعد ابن البيطار: «إذا.. اسمعها مني للمرة الثانية..لن أتركها لك !».

كان ابن البيطار قد بلغ من التمكن من العلم ما يجعله أكبر بكثير من أن يلجأ إلى مثل هذه الصغائر ، ويسخر علمه لخدمة نزوات طلاب اللذة ، ورجال السلطة .. وكان عليه أن يبلغ الملك الكامل بكل شيء حدث .. ولكن خلقه وكبرياءه العلمي منعاه أن يفعل ، فقد رأى ابن البيطار العالم أنه لا ينبغي أن يكشف سرا ائتمنه عليه أحد مرضاه .. وأبى عليه كبرياؤه العلمي .. أن يحتسب عند الملك الكامل ..حماية من أي نوع ، وهذا ما نجاه من شرور صاحب الشرطة .

وكانت المفاجأة ...

حين أطلعه الملك نفسه .. وهما في رحلة معا إلى الشام عن كل ما رواه له صاحب الشرطة .. وقال لابن البيطار :

«لقد ازداد احترامي لك .. وتضاعف تقديري لعلمك وخلقك ونبلك ، وتأكد أيها العالم الجليل .. أنه لما يشرفني ويشرف مملكتي أن يكون من بين مواطنيها عالم عظيم مثلك .. يحمل كل هذا الخلق .. كما يحمل كل هذه الثقة بنفسه .. ويحترم علمه كل هذا الاحترام . وعلى كل حال .. لقد أمرت صاحب الشرطة ألا يتعرض لك بعد اليوم .. ولو حاول مضايقتك .. فعليك أن تخطرني في الحال ..».

ثم تلفت الملك إلى فتى يقف بالقرب منهما .. وقال لابن البيطار : «لك عندي مفاجأة .. تعال يا ابن أبي أصيبعة .. وقبل يد أستاذك !! » وأسرع الفتى يقبل يد ابن البيطار الذي سحبها بسرعة ورفض أن يقبلها الفتى .. بينما أردف الملك : « إن ابن أبي أصيبعه مهتم بالعلم وهو من هواة الرسم ، ولقد حدثتني من قبل عن حاجتك لرسام يرسم لك الزهور والنباتات التي تقوم بدراستها .. والفتى كما قلت يجيد الرسم .. وعليك أن تختبره .. فإذا أصاب .. فيصحبك في معملك ولتكلفه بما شئت من أعمال ..».

وقد انبهر «ابن أبي أصيبعة » بشخصية ابن البيطار حتى إنه قال عنه : في (عيون الأبناء) : «رأيت من حسن عشرته وكمال مروءته وغزارة علمه ودرايته ما يفوق الوصف .. كان أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النباتات ، ونعت أسمائها على اختلافها وتنوعها ».

ويستطرد الأستاذ «رأفت الخياط» عن ابن البيطار فيقول : «يعتبر ابن البيطار هو أول عالم يستخدم فن الرسم في تسجيل أشكال وألوان النباتات .. وحفظها في سجل للاستعانة بها كمراجع للباحثين والدارسين ، كان يقوم بنفسه برسم كل ما تقع عليه عيناه من نادر النباتات .. والأعشاب، ولكنه أمام كثرة وتشعب مسئولياته،

ترك هذه المهنة لابن أبي أصيبعة ، لكي يتفرغ هو تماما للمهمة التي أضافت إلى مصنفات ابن البيطار قيمة فنية فوق ما احتوت من جوامع المفردات .

ومن الإضافات العظيمة التي أضافها ابن البيطار أن جعل من علم الصيدلة بمعناه العصري ، وعلم الطب : فنين متلازمين يكمل كل منهما الآخر ، ولعله كان أول صيدلي يبتكر الخدمة السريرية للمريض ، فالصيدلة وإن كانت تابعة للطب .. إلا أن ابن البيطار شكل منهما جسما لطائر واحد لا يستطيع الطيران إلا بجناحيه .

وبعد أن مات الملك الكامل ، خلفه الملك الصالح نجم الدين الذي استبقى ابن البيطار في خدمته ، وقت أن كان يقيم في دمشق مواصلا أبحاثه وتجاربه واكتشافاته .

وكان من الممكن أن تحظى كل اكتشافات ابن البيطار باهتمام عالمي أوسع ، لولا أن الحروب الصليبية كانت قد بدأت على النحو المعروف .. وانقطع أخذ الغرب عن العرب .

ومات ابن البيطار سنة 646هـ سنة 1248م بعد أن ترك وراءه مؤلفين عظيمين:

- «المغني في الأدوية المفردة» ، وهو يعالج المادة الطبية .
- «الجامع في الأدوية المفردة » ، وهو عبارة عن مجموعة من الأدوية البسيطة ، كتب أوصافها بالعربية واليونانية ، وفي هذا الكتاب الذي يعتبر أقدم مؤلف من نوعه في التاريخ ، ذكر ابن البيطار فيه مالا يقل عن 1400مادة نصفها من مبتكراته .. وقد طبعت ترجمات لكتب البيطار باللاتينية تحت عنوان : «الأدوية المبسطة» أواخر 1758م في مدينة «كريمونا».

* * *

أبو الحسن الشاذلي

«أبو الحسن الشاذلي» من مجددي القرن السابع الهجري ، واشتهر بأنه : إمام الطريقة الشاذلية المعروفة في العالم العربي ، واسمه كما ورد في كتاب « الطبقات والسير» هو «علي بن عبد الله عبد الجبار» الذي ينتهي نسبه إلى جده الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما . ولد بقرية «غمارة» التابعة لمدينة سبتة المغربية عام 593 هـ . وبها نشأ وتلقى بداية تعليمه . ومن هذه القرية المغربية الصغيرة انطلق أبو الحسن الشاذلي على غيرها من بلدان المغرب لينتقل إلى المشرق ، حيث سافر إلى العراق ، وهناك التقى «بأبي الفتح الواسطي » عام 618 هـ وكان للقائه بالواسطي أثر كبير في حياته ، فحين اجتمع الشاذلي بهذا القطب العراقي الكبير قال له : «جئت العراق لألتقي بقطبها». وهنا رد عليه الواسطي : «أتطلب القطب بالعراق، والقطب ببلدك المغرب ؟» . ورجع إلى المغرب ، والتقى بقطب زمانه « أبي محمد عبد السلام ابن مشيش » ، شيخه فيما بعد ، وأستاذه الروحي ، وموجه حياته .

صحب أبو الحسن الشاذلي شيخه ابن مشيش فترة من الزمن استطاع فيها أن يستفيد من علمه الغزير ، وذات يوم قال له ابن مشيش :«يا علي ، ارتحل إلى إفريقيا ، واسكن بها بلدا تسمى (شاذلة) ، فإن الله سبحانه وتعالى يسميك الشاذلي .. وبعد ذلك تنتقل إلى تونس ويؤتى إليك من قبل السلطة ، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية » .

وصدع الشاذلي لأمر أستاذه «ابن مشيش» ، وارتحل إلى شاذلة . وفي غار بجبل زغوان بتونس ، مطل على شاذلة ، سكن أبو الحسن الشاذلي ، وشغل بالعبادة واصلا

الليل بالنهار في صلاة وصيام . وطالت إقامته بهذه القرية «شاذلة» حتى اشتهر وذاع صيته .. وعرف منذ ذلك الحين باسم: الشاذلي .. وبدأ الناس يقصدونه - كما يسجل الأستاذ الدكتور «عامر النجار» في كتابه (الطرق الصوفية في مصر) حتى إنه اضطر للخروج من رباطه إلى أعلى الجبل متخذا له دارا بمدينة تونس .

وهكذا أصبحت دروس أبي الحسن الشاذلي ومواعظه وتعاليمه من الأمور التي يحرص عليها مئات المريدين والتلاميذ، وبدأت مجالس علمه تتعدد وتتسع، فكان إذا جلس للدرس التف حوله المريدون والأتباع، وإذا سار مشى في ركبه الكثيرون أيضا.

ولعله بسبب هذا الأمر، استهدف لكيد الحاقدين عليه ودسائسهم ، وفي مقدمة هؤلاء قاضي القضاة بمدينة تونس «أبو القاسم بن البراء» الذي كاد له ودس عند سلطان تونس وقتئذ ، متهما إياه بأنه جاسوس فاطمي جاء من المغرب ليتآمر عليه ، مستندا في ذلك إلى نسبه الذي ينتهي إلى الحسن بن علي وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

وقد انطلت هذه الفرية على السلطان، وخاصة أن تونس كانت من قبل فاطمية، وأن كلمة «قطب» يمكن أن تخفي وراءها معنى الإمام الفاطمي .

ويبدو أن هذه المكيدة قد احتلت جزءا كبيرا من اهتمام المؤرخين لأبي الحسن الشاذلي : قدامى ومحدثين ، وإلا فما معنى أن يحدثنا عنها ابن الصباغ في رأي نقله بتصرف الدكتور «عامر النجار» - من كتابيه (درة الأسرار) و(المفاخر العلية) ؟! يقول ابن الصباغ : «إن ابن البراء أبلغ السلطان قائلا له : إن رجلا من أهل شاذلة ، سراق الحمير ، يدعى الشرف ،ويدعي أنه الفاطمي ، ويشوش عليك في بلادك» .. واتهمه بالكفر والزندقة .

وهنا أمر السلطان بأن يعقد مجلس يحضره الشاذلي ، ونفر من العلماء والفقهاء ليناقشوه أو ليحاكموه ، وليسألوا عن نسبه مرارا وتكرارا، والشيخ يجيب بما هو

الحق.. وبأنه بالفعل ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي رضى الله عنهما . وسألوه عن علوم الدين والفقه فوجدوه عالما فقيها ، وأذهل الحاضرين بحسن إجاباته . وبأنه ليس كما قال ابن البراء مزيفا أو مدعيا . ويسألونه عن المريدين والتلاميذ الذين يلتفون حوله ، فتأتي إجاباته بما يفيد أن هؤلاء لا خطر منهم ، وأنهم التفوا حوله للتفقه في الدين والتبحر في العلم ، وظلوا يسألونه ويسألونه ويجيبهم بما يؤكد أن الرجل بريء من كل ما نسب إليه . وعندئذ طلب منهم السلطان أن يكفوا عن تساؤلاتهم قائلا : «دعوه .. هذا رجل من أكابر الأولياء الصالحين» . فيرد ابن البراء موجها حديثه إلى السلطان ليثيره : «والله إن تركته ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجنك من أظهرهم . فإنهم مجتمعون على بابك» ، لكن السلطان - الذي تأكد من علم وتقى أبي الحسن الشاذلي - لا يهتم بقول قاضيه . آمرا العلماء أن ينصرفوا ، ليلبث مع هذا الرجل الصالح وقتا طيبا . وينضم إلى مجلسهما أخو السلطان ، وكان كثير الاعتقاد في الشيخ ، وما إن ينتهي مجلس السلطان حتى يصحبه إلى داره .

لكن على الرغم من ثقة السلطان ، وتكريم أخيه .. أدرك أبو الحسن الشاذلي أن دس وكيد قاضي القضاة لن ينتهيا ، وهنا فكر في البعد عن تونس إيثارا للسلامة ، وتجنبا لما قد يحدث وينسبه إليه . ويعلم السلطان بذلك فيغضب ، ويستدعي أبا الحسن الشاذلي مرة ثانية ليثنيه عن عزمه قائلا : أي شيء يسمع به عن إقليمنا .. أنه أتاه ولي من أولياء الله الصالحين فضاق عليه الإقليم حتى خرج فارا بنفسه !! فيرد الشاذلي : «ما خرجت إلا بنية الحج ، وإذا قضى الله حاجتي أعود إلى إقليمكم تونس إن شاء الله تعالى » .. فيسمح له بالخروج مادام سوف يعود.

لكن ابن البراء وقد أكلت الغيرة والحقد قلبه يكيد مكيدة أخرى خارج تونس لأبي الحسن الشاذلي ، حيث أرسل إلى سلطان مصر الكامل محمد الأيوبي رسولا يحمل رسالة منه يقول فيها : «إن هذا الواصل إليكم - حيث سيمر على مصر في طريقه للحج - أفسد علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم ».

ولم يكد الشاذلي يصل إلى الإسكندرية حتى يقبض عليه ويرسل في حراسة مشددة إلى مقر السلطان ، ليعقد من جديد مجلسا للقضاء والعلماء والفقهاء يحاكمون فيه هذا الوافد الذي جاء من المغرب ليفسد على المصريين بلادهم . لكن تحدث المفاجأة حيث يكتشف السلطان في مجلسه بأن الرجل على علم وتقوى وإيمان ، وأنه ليس كما وصفه قاضي قضاة تونس ، وبأنه ما جاء إلى الإسكندرية إلا للمرور عليها في طريقه للحج لا أكثر ولا أقل ، ويشعر السلطان بأنها مكيدة دبرها قاضي قضاة تونس لحاجة في نفسه ، فيعتذر لأبي الحسن الشاذلي ، ويكرم وفادته حتى يواصل طريقه إلى الحج .

ويؤدي أبو الحسن الشاذلي فريضة الحج ، ليعود إلى تونس كما وعد سلطانها ، ويمكث عامين يلتقي خلالهما بتلميذه وخليفته أبي العباس المرسي . وخلال هذين العامين أنهى كل أموره في تونس ، وأعد نفسه للسفر إلى الإسكندرية يرافقه تلميذه أبو العباس المرسي ونفر من أتباعه الذين كانوا يتزايدون كلما مر على مدينة من المدن في طريقه إلى الإسكندرية .

وفي الإسكندرية يستقر بالقرب من كوم الدكة ببرج من أبراج السور أوقفه السلطان عليه وعلى ذريته . ليبدأ دروسه داعيا إلى اتباع طريقته، متخذا مسجد العطارين مكانا يعقد فيه مجالسه ليظل في هذه المدينة ما يقرب من الأربعة عشر عاما، إلى أن يتوفى وهو في طريقه إلى الحج .

وعلى الرغم من أن أبا الحسن الشاذلي لم يترك آثارا مكتوبة – حيث كان يعتبر آثاره في تلاميذه من بعده – وذلك حين سئل : «لم لم تضع الكتب ؟ فأجاب : كتبي أصحابي» .. كما أن للشاذلي إشارات لطيفة لبعض آيات القرآن الكريم ، تعد بمثابة تفسير صوفي لهذه الآيات ، وقد نبه إليها الشيخ الإمام الدكتور «عبد الحليم محمود» في كتابه عن أبي الحسن الشاذلي .

ففي حديثه عن إشارات الصوفية ، ومن بينهم أبو الحسن الشاذلي نبه الدكتور عبد الحليم محمود بقوله : «ينبغي أن نلاحظ أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف ، فهي إشارات وليست تفسيرات . ومن أجل ذلك ، فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين » .

وكما يرى مؤرخو التصوف أن أهم القضايا التي يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم ألا يدعى الصوفي أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعاني الأخرى ، بل لابد من التسليم أولا بالتفسير الظاهري ، أو بالمعنى الحرفي ، ولا ضير بعد ذلك أن نذكر معاني أخرى تتكشف للنفس الصافية ، فإن هذا ثمرة الإيمان .

وإذا كان علماء الظاهر يختلفون في تفسيراتهم ومهمتهم واجتهاداتهم – ويعد اختلافهم رحمة – فإن اختلاف أهل الحقائق رحمة أيضا ، لأن كل واحد يتكلم من حيث دقته ، ويجيب من حيث حاله ، ويشير من حيث وجده ، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات وأرباب القلوب والمريدين والمتحققين فائدة من كلامهم .

ولذلك .. يرى الدكتور «عامر النجار» في كتابه (الطرق الصوفية في مصر) « أن هذه الإشارات الصوفية فيها إثراء روحي ، ولون من ألوان الكشف عن الإعجاز القرآني، طالما أن الصوفي يؤمن بالتفسير الظاهري للقرآن ، ولا يرى أن إشاراته تقوم مقام هذا التفسير الظاهري ، فهي مجرد إشارات لا أكثر ولا أقل ، وإن كان فيها إثراء روحي مشرق المضمون ، ونفحة إلهية جميلة .. وبهذا الأسلوب الإشراقي الصوفي فسر أبو الحسن الشاذلي آيات من القرآن الكريم .

مثلا : فسر آية : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1] على هذا النحو : يقال للولي وما تلك بيمينك أيها الولي ؟ فيقول : هي دنياي أنفق منها على نفسي وأهلي وإخواني. فيقال له : ألقها . فيلقيها ، فيجدها حية تسعى في هلاك قابضها ، فيأخذ

(١) طه : ١٧ .

حذره منها ، فإذا حذر منها يقال له : خذها ولا تخف ، فكما ألقاها أولا بإذن حال بدايته ، فذلك بإذن حال نهايته .

بقي في الحديث عن شخصية هذا الإمام الصوفي الكبير : أبي الحسن الشاذلي الحديث عن أحزابه المشهورة ، والحق أن أحزاب أبي الحسن الشاذلي - كما يقرر مؤرخوه - تكشف عن طاقة روحية هائلة ، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية ، والإشراقات ، والجوانب الانفعالية الإنسانية . كما تكشف عن إبداع فني جميل ، ولعل **حزب البر** هو أجمل أحزاب الشاذلي ، الأمر الذي جعل الدكتور «زكي مبارك» يقول عنه : إنها خير ما أنتجت القرائح لما فيها من قوة المعنى ، وطرافة الخيال.. إن فقرات هذا الحزب تحتوي على دقائق الأسرار والإشارات التي لا يفهمها إلا كبار الحكماء .

ولعل قصة انتهاء حياة هذا الصوفي الكبير تدل دلالة واضحة على شفافية نفسه، فكما يقول الشيخ «ياقوت العرش»، نقلا عن شيخه أبي العباس المرسى، تلميذ أبي الحسن الشاذلي : إن أبا الحسن كان يحج في كل سنة ، فيجعل طريقه صعيد مصر ، وقد حدث في حجته الأخيرة سنة 656 هـ ، أن طلب من خادمه أن يستصحب معه فأسا وقفة وخيوطا وبقية ما يجهز به الميت ، وقد عجب خادمه لهذا الطلب الذي لم يتعوده من قبل ، فسأله عن السبب . وأجابه الشاذلي إجابة مقتضبة قائلا : عند حميثري الخبر اليقين .

ووصل الإمام الشاذلي إلى حميثري وهي بلدة على ساحل البحر الأحمر ، وهناك اغتسل وصلى ركعتين، بعدهما فارقته الحياة ليدفن في المكان الذي صلى فيه بحميثري بمحافظة البحر الأحمر .

ويقول «ابن بطوطة» في رحلاته : وقد زرت قبر الإمام الشاذلي ، وعليه قبة مكتوب عليها اسمه ونسبه الذي ينتهي إلى الإمام الحسن ابن الإمام علي رضي الله عنهما .

ويبقى أن نذكر استنادا إلى كتابات مؤرخي الشاذلي أن تاريخه يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الحركة الفكرية ، وتاريخ التصوف في القرنين : السادس والسابع الهجريين . فهما القرنان اللذان انتشر فيهما التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساسا لفهم الدين الإسلامي فهما روحيا . بعد أن ظلوا يناضلونه وقتا طويلا ، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله هي التفرغ لعبادته ، والفناء في حبه ، والاتصال به عن طريق تصفية القلب والسمو بالنفس والروح ، وترك المتصوفة جانبا وسائر الفقهاء وعلماء الكلام من اعتمادهم على المنطق الجاف والجدل العقيم لإثبات وجود الله ، وبيان قدرته سبحانه وتعالى .

في هذين القرنين : ظهرت الطرق الصوفية ، ومنها الطريقة الشاذلية ، وكثر بالتالي أتباعها من المتطلعين إلى حياة روحية تعتمد في أساسها ومثلها الأخلاقية العليا على أصول الإسلام وتعاليمه ، وعلى القواعد التي يعتمد عليها ويعترف بها أهل السنة وهي : القرآن الكريم والحديث الشريف ، حتى إن من أتباع هذه الطريقة الشاذلية «ابن عطاء الله السكندري» الذي يجمع بين الشريعة والطريقة ، والذي يعتبر مع الشاذلي من المجددين في التفكير الإسلامي .. إذ كانت أقوالهم وأفعالهم تقرب من إشارات الصوفية وتفسيرات أهل الظاهر من العلماء والأئمة .

* * *

العز بن عبد السلام

للحياة الفاضلة مقومات وسمات ، قيم ومبادئ ، أهداف ومثل .. فيها تكون سلامة النفس والحس ، سعة العقل والعلم ، استقامة التصرف والعمل ، قوة العقيدة واليقين .

هذه المعاني أو أكثرها كان يتحلى بها الرجل الصالح ، والإمام المجتهد ، سلطان العلماء ، مجدد القرن السابع الهجري : العز عبد العزيز بن عبد السلام : رجل العروبة والإسلام وبطل دمشق والقاهرة .

ولد هذا الإمام العظيم سنة سبع وسبعين وخمسمائة في دمشق ، أو الشام كما يطلق عليها أحيانا . ونشأ بين ربوعها وأهلها ، وتعلم على أيدي علمائها وفقهائها ، فحفظ القرآن الكريم ، وأتقن الحديث وأدرك تفسيرهما ، وصال في العلوم الشرعية، فعرف الكثير من مخبوئها الذي هو كنوز تصلح زادا للحياة الاجتماعية وقتئذ وتحول إلى مهنة التدريس ثم الفتوى . وظل في مسقط رأسه : دمشق ، حتى رحل عنها إلى القاهرة – كما سنرى – ليتوفى بها عام ستين وستمائة للهجرة .

كان الإمام العز منذ فجر شبابه : قوي الشخصية ، عميق الإيمان ، موصول العمل، موفور النشاط ، زاهدا ، تقيا ، شديد الغيرة على دينه وتعاليم ربه ، صادق الكلمة في مواطن النصح والتوجيه ، شديد المراس في مواقف الحق والصراحة ، لينا في مواطن الرقة والتواضع ، حتى صدقت عليه كلمة فيلسوف الإسلام : «محمد إقبال» ، حيث قال عنه : «إنه ناعم كالحرير إذا كان في حلقة إخوانه ومريديه وتلاميذه ، وهو كالفولاذ إذا دارت المعركة بين الحق والباطل..».

ولقد عاش الإمام العز في فترة عصيبة من تاريخ المسلمين ، تعرضوا فيها لبلاء أطبق عليهم من كل جانب ، لأن البعض منهم قد تهاون في أمر دينه ، والبعض الآخر عمل في فريق شملهم ، حتى أصبحوا شعوبا وأمما ، شيعا وأحزابا ، بعد أن كانوا أمة واحدة تجمعها كلمة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس . أما وقد صار حالهم على هذا المنوال ، فقد سلط عليهم من الغرب عدو يضمر الحقد الكظيم على العروبة والإسلام، وهو ما يمثله الصليبيون، ومن الشرق عدو لا يرحم ولا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه متمثلا في التتار . هذا إلى جانب عدد يعيش بين ظهرانيهم تواطئوا مع هؤلاء وهؤلاء ، فباعوا الوطن والعقيدة والنفس .

كان الإمام العز ، كلما تجددت لأولئك الغزاة محاولة أو هجمة على بلاد الإسلام والعروبة ثار ، وأخذ يحرض الجموع المؤمنة ، ويذكرهم بمجد هذا الدين الحنيف وإعلاء كلمته .. وحثهم على المبادرة إلى الجهاد والنضال .. وكانت له في ذلك مواقف مشهودة .

لقد حدث أن سيطر على دمشق – أثناء تواجده بها – أمير متخاذل ، يدعى : «إسماعيل بن العادل» ، اختار الضعف أسلوبا لحياته ، والذلة منهجا لحكمه ، والتآمر وسيلة يحقق بها أطماع نفسه – كان هذا الأمير المتخاذل الضعيف المتآمر يتولى أمر دمشق من قبل السلطان «نجم الدين أيوب» ، الذي كان يواجه هجمات الإفرنج في ذلك الوقت ، وكان من الطبيعى أن يتعاون هذا الأمير مع هذا السلطان على رد هؤلاء الغزاة ، إلا أن ما حدث من هذا الأمير كان غير ذلك ، فنراه يتواطأ مع الإفرنج ضد نجم الدين حين ينجو بحياته ، وليكون الصديق الوفي الفائز بالنصيب الأكبر يوم توزيع الغنائم ، بل وصل الأمر من هذا الأمير أن أباح للإفرنج شراء السلاح والمؤن من دمشق ، سلاحا يوجه إلى قلب إخوة الإسلام والعروبة !

عندئذ ثار الإمام العز وغضب ، ولم يخش البطش والجبروت ، ولم يخفه. وكان خطيبا لجامع دمشق حينئذ ، فكانت كل خطبة له يندد فيها بالخيانة ، وينادي بحرمة التعاون مع الإفرنج في أي شيء مادام المسلمون في حالة حرب وقتال معهم . لقد أعلن

الإمام العز من فوق المنبر قائلا : «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ، ويذل فيه أعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك وغضبك ..».

ولم يكتف بذلك ، وإنما قام يطوف بين الناس يمنعهم من التعامل مع الأعداء ، ومن يساندهم.. مهما كانت حاجاتهم.. مرددا على مسامعهم: « يحرم عليكم مبايعتهم إذا كنتم تتحققون ، إنهم إنما يشترون السلاح ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين..».

وتتوالى الأيام والإمام العز بن عبد السلام يزداد تألقا وسطوعا حتى وإن كابد العزل والنفي والتشريد .. ويزداد قربا من الناس ، وبعدا عن حكامهم من المتخاذلين والخونة . ويزداد تمسكا بما ينادي به من إعلاء كلمة الحق والدين . فيزداد اضطهاد الحكام له ، ويتضاعف كلما رأوه يثابر على أداء رسالته حتى رأينا معاني البطولة التي تجلت فيه شابا فتيا لم تتركه كهلا ولا شيخا . بل صاحبته بقية عمره الذي زاد على الثمانين عاما ، حتى وإن وهن جسده على مر هذه السنين ، فإن همته ظلت كما هي قوية فتية .

فها هو ذا في شيخوخته ، يشن حملة شعواء على الملوك والسلاطين المتزمتين ، حين يرى حاكما مترفا في يوم عيد يسرف في تعاليه وتجمله وأبهته .ويخرج بين عسكره ووجهاء قومه في زينته .. ليقبل الناس الأرض بين يديه .. هنا يغضب الإمام العز، ويتعمد أن ينادي هذا الحاكم باسمه مجردا وينصحه بأن يصلح المفاسد الموجودة في جهاز حكمه فيرد عليه الحاكم معتذرا : «هذا ما عملته ، هذا من زمان أبي» ، «فيقول له العز معترضا : «أأنت من الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[1].

وينتهي هذا الموقف العاصف بين الحاكم والإمام ليقول له أحد تلاميذه: «لم فعلت هذا مع الحاكم» ، فيرد الإمام العز قائلا : «رأيته يا بني في تلك العظمة ،

(١) الزخرف : ٢٣ .

فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه» ، «فقال التلميذ :«أما خفته يا إمامنا ؟ «فأجاب الإمام العز : «والله يا بني ، لقد استحضرت هيبة الله عز وجل يوم اللقاء ؛ فصار هذا الحاكم أمامي كالقط..».

وكان الإمام العز بن عبد السلام .. رجلا يقدس الحق ويخضع له ، ويسارع بالعودة إليه إذا تبين له خطأ وقع فيه أو انحراف مال إليه ، وتلك سمة من سمات أخلاق العلماء في كل عصر وفي كل مكان . الموضوعية في محاسبة الرأي حتى ولو كان هذا الرأي له ، والرجوع عنه إذا وجده يجانب الحقيقة . فلا شيء يهم العالم في أي مجال من المجالات سوى الحقيقة وتوضيحها للناس . وكلما اقترب العالم من الحقيقة ازداد موضوعية ، وبالتالي ازداد احترام الناس له .

وهكذا .. كان إمامنا العز بن عبد السلام .. لقد حدث أنه أفتى ذات مرة بأمر من الأمور ، ولعله اجتهد في ذلك وأخلص وراعى أمر ربه كعادته دائما فيما أفتى ، وعلى الرغم من هذا ، فقد ظهر له خطأ في رأيه ، وهنا لم يكابر أو يعاند ، ولم يتردد أو يتراجع في إعلان الحقيقة ولو كانت تسبب له – كشيخ للإسلام – حرجا ، بل على العكس ، أخذ ينادي بين الناس على نفسه قائلا : « من أفتى له العز بن عبد السلام بكذا وكذا، فلا يعمل به ، فإنه أخطأ .. والله على ما أقول عليم وشهيد..».

هذا الطراز من العلماء الذي يعامل نفسه بموضوعية كما يعامل غيره من الناس، لابد أن يكون بين الناس ذا هيبة ووقار . هذا إلى جانب أن إيمانه العميق ، وعلمه الواسع قد أشاعا على ملامحه سمتا يرغم الآخرين خشيته وإجلاله . لقد كان يقيم في دار اختارها لنفسه خارج القاهرة مع أهله ، وذات ليلة جاء إليه نائب السلطان ، وكان من أمراء المماليك ، مصحوبا بجماعة من الأمراء وكبار رجال الدولة والجند ، يريدون الاعتداء عليه ، والبطش به في هدأة الليل ، إلى درجة أن هذا المملوك الكبير جاءه شاهرا سيفه ومن خلفه أتباعه ورجاله وجنده ، فاعلين ما فعله قائدهم ، حتى يمعنوا في تخويفه ، وكسر شكيمته . ترى ماذا يكون تصرف

رجل أعزل مسن يعيش في الخلاء ؟ لقد أقبل عليهم في ثبات ورباطة جأش ، وقال لهم بصوت عميق قوي مؤثر : «أهلا بضيوفنا!» . عندئذ انبهر المماليك وكبيرهم بقوة شخصية هذا الإمام ، وسطوع روحه ويبست أيديهم على سيوفهم وتجمدت ، ولم يجدوا ما يفعلونه إزاء هذا الموقف غير المتوقع إلا أن يطلبوا منه العفو والدعوات .

ولعل ظروف وفاته تشير إلى ما كان عليه من إخلاص وأمانة .. علم وعمل .. جهاد وكفاح .. تقوى وصلاح .. لقد انتهت حياته أثناء إلقاء درسه بين تلاميذه ومريديه أثناء تفسيره لقول الحق : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

وفي وداعه إلى مثواه الأخير ، خرجت مصر كلها تشيعه ، فخرج النساء والرجال والأطفال ، وأمر السلطان - الذي كان أفتى بعدم صلاحيته لأنه مملوك - أن يحمل الأمراء نعش هذا الشيخ العظيم . بل اشترك معهم في ذلك .. تقديرا لعلمه وصدقه وتقواه . وفي مسقط رأسه دمشق وما يجاورها من المدن أقيمت له جنازة ضخمة وصلوا عليه صلاة الغائب .

واستقر جثمان هذا الإمام العظيم في مثواه الأخير تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان بيبرس إلى قصر ملكه يتنفس الصعداء ، ويقول : «الآن .. قد استقر أمري في الملك ، لأن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا .. لخرجوا علي وانتزعوا الملك مني..».

لقد كان الإمام العز بن عبد السلام سلطانا فوق السلاطين .. وكان حقا وصدقا سلطان العلماء ، ومن أفضل المجددين في الإسلام .

* * *

(١) النور : ٣٥ .

ابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي: أحد مجددي القرن السابع الهجري ، المولود بدمشق عام 595 هـ ، عاش أغلب سنوات عمره بالقاهرة حتى توفي بها عام 668 هـ ، حيث تعلم الطب فيها ، وكان من أساتذته «ابن البيطار» أول عالم دواء (صيدلي) في العصور الوسطى .

وترجع أهمية ابن أبي أصيبعة إلى جانب طبه هو تأريخه للأطباء العرب في واحد من كتبه هو : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي نشره في القاهرة ليصبح أهم مصدر للحديث عن أربعمائة طبيب في الحضارة الإسلامية . كما برز في علاج الكحالة ، أي : مرض العيون ... وغيره من الأمراض .

وترجمة حياة ابن أبي أصيبعة لا تعرف إلا من إشاراته القصيرة الواردة في كتابه العظيم «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» . كان جده خليفة بن يونس الخزرجي المتوفى عام 562 هـ من أتباع صلاح الدين وكان أميرا وقائدا في خدمة عمه شيركوه. وولد ابنه الأكبر «سديد الدين القاسم» في القاهرة عام 575 هـ ، وولد ابنه الأصغر «رشيد الدين علي» في حلب وأصبح الاثنان من الأطباء المبرزين . وكانت دراسة الطب مزدهرة بنوع خاص في مصر والشام ، حيث أسس حكام قادرون (أمثال: نور الدين بن زنكى وصلاح الدين) البيمارستانات في دمشق والقاهرة ، وشجعوا دراسة الطب ورجاله بكل الوسائل الممكنة .وكان من بين العلماء الأعلام الذين وفدوا من بغداد إلى دمشق والقاهرة «عبد اللطيف بن يوسف» الذي أصبح صديقا حميما لخليفة ابن يونس الخزرجي جد ابن أبي أصيبعة والذي درس لولديه اللذين كانا يطلبان

العلم، كذلك على الفيلسوف الطبيب اليهودي «موسى بن ميمون». وقد درس والد ابن أبي أصيبعة القاسم «الكحالة» على يد «أبي حجاج يوسف السبتي» في البيمارستان الناصري بالقاهرة وأصبح كحالا شهيرا . وفي عام 606 هـ أبرأ «الملك العادل سيف الدين» من رمد شديد. والتحق منذ ذلك الحين ببلاط سلاطين الشام ، وعين ناظرا للكحالين ، وتوفي في دمشق عام 649 هـ . وكان ابنه أحمد - الذي ولد في حدود عام 595 هـ في القاهرة ، والذي لقب باسم جده «ابن أصيبعة» - شابا موهوبا درس فيما بعد دراسة عملية وعلمية قيمة في البيمارستان النوري، وتلقى الطب على «رضى الدين الرحبي» و«شمس الدين الكلي» . وابن البيطار مؤلف (جامع المفردات) ، وخاصة مهذب الدين مؤلف (جامع المفردات) ، وخاصة «مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار» (توفي عام 628 هـ) الذي أنشأ مدرسة ممتازة من الأطباء ، وكان له فضل عظيم على دراسة الطب في عصره . وكان زميله في البيمارستان الطبيب اليهودي «عمران بن صدفة» الذي كانت لديه مكتبة غنية بالكتب الطبية . وكانت سنوات دراسة ابن أبي أصيبعة على هذين الأستاذين محببة إلى نفسه ، ومن المحتمل أنه استغل إلى حد كبير كتب ابن صدفة في تأليف تاريخه . وكان ابن أبي أصيبعة يقوم حينا من الزمن بالكحالة في البيمارستان الناصري بالقاهرة حيث استفاد من دروس «السديد ابن أبي البيان الإسرائيلي» ، الطبيب والعالم بالأقراباذين ، وهو مؤلف كتاب الأقراباذين المعروف بـ : الدستور البيمارستاني. « وعلى هذا النحو استطاع ابن أبي أصيبعة أن يحذق الطب من ناحيته العملية ، كما كان في الوقت نفسه يكتب تاريخه المعروف عن الأطباء . وتمت أول نسخة من هذا الكتاب في حدود عام 640 هـ ، ومنذ ذلك الحين أضاف المؤلف عدة زيادات وصلت بالتراجم إلى عام 667 هـ ، أي قبل وفاة المؤلف بعام واحد ، ولهذا السبب تختلف النسخ المخطوطة الموجودة فيما بينها اختلافا بينا ، ولم يكن ابن أبي أصيبعة كاتبا مجيدا ، كما ينقص كتابه في بعض الأحيان الإصابة في النقد، وقد جعلت كثرة ما أورده من الشعر- ومعظمه- رديء

– دراسة هذا الكتاب من الصعوبة بمكان . على أن لابن أبي أصيبعة فضلا عظيما بما جمعه من أخبار فاق فيها غيره في التاريخ الطبي والعلمي للقرون الوسطى في الشرق. وقد أمدنا فوق ذلك بشيء عن الطب الهندي واليوناني لم يكن ليصل إلينا بدونه ، كما أمدنا بتفاصيل وافية عن الحياة الاجتماعية والعلمية في العالم الإسلامي . لذلك أصبح كتابه مصدرا عظيم الأهمية مكملا لما كتبه عظماء المؤرخين المسلمين في التواريخ العامة . ويحتوي كتابه على : نبذ كثيرة أخذت من كتب أخرى فقدت منذ أمد بعيد ، مثال ذلك: نبذ من كتب جالينوس الطبيب اليوناني المشهور ، وحنين النصراني وابنه إسحاق ، وعبيد الله بن جبرائيل بن يختيشوع. ومن المسلمين ابن جلجل ، والمبشر بن فاتك ، والدخوار ... وكثيرون غيرهم .

ومن الواضح ... أن ابن أبي أصيبعة قد ترجم لأطبائه تراجم دقيقة ، وأن ما أثبته من الكتب بلغ من الثقة حدا كبيرا . وهذه الكتب الوفيرة التى أثبتها في آخر كل ترجمة من الأربعمائة ترجمة التى كتبها عن رجال الطب في العصر الإسلامى تعطينا فكرة صحيحة عن هذا الإنتاج العلمى العظيم لكثير من هؤلاء العلماء ، وما وصلوا إليه في بعض الأحيان من المعرفة الشاملة العجيبة . وقد اعتمد الكتابان الموثوق بهما اللذان كتبا عن الطب الإسلامى باللغات الأوروبية وهما : كتاب (فستنفلد) بالألمانية ، وكتاب (لكلرك) بالفرنسية ، كل الاعتماد على مصنف ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء) . وقد بدأ بترجمة هذا المصنف مع التعليق عليه كثير من العلماء ، ولكنهم لم يسيروا في الترجمة إلا بضع صفحات ، مع أن الأطباء والمؤرخين الذين يكتبون في التاريخ العام عن الشرق في أشد الحاجة إلى مثل هذه الترجمة .

ونستدل من أقوال ابن أبي أصيبعة نفسه : أنه ألف ثلاثة كتب أخرى ، ولكنها لم تصل إلى أيدينا ، وهى : كتاب (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء) . وكتاب (إصابات المنجمين) ، وكتاب (التجارب والفوائد) ... وغيرها .

* * *

ابن سبعين

عالم مدينة سبتة بالأندلس : ابن سبعين. يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري كفيلسوف صوفي يتميز تصوفه بنوعية فكرية معينة لعلها في إمكانية التصوف العقلي، هذا التصوف العقلي المبني على فكرة الفيض التي تبدو عند ابن سبعين المفكر النقادة الذي لم يدرس بعد دراسة كافية ولائقة به ، وعلى الرغم مما في آرائه من حصافة وفراسة، وفي أفكاره من عمق ودقة . إن أكبر مصدر نعتمد عليه حتى اليوم في تعرف نظرياته هو «المراسلات» التي دارت بينه وبين الإمبراطور «فردريك الثاني» حاكم صقلية المتوفى سنة 1250 م . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة إلى أن اهتدى إليها المستشرق الإيطالي «إمري» سنة 1853م ، في مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان :«الرسائل الصقلية » . وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها في الصحيفة الآسيوية الفرنسية المستشرق الدنمركي المشهور «مهرن». وقد وقف علماؤنا العرب وفي مقدمتهم «الدكتور بيومي مدكور» منذ زمن على هذه المخطوطة، فوجدوها مملوءة بالمعلومات والملاحظات الدقيقة ، وكان نشر نصها في باريس عام 1943م .

وكلنا يعلم ما كان عليه فردريك الثاني من : رغبة في العلم وحب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه إلى مفكري الإسلام أربعة أسئلة أجاب عنها ابن سبعين عالم مدينة سبتة ، وهي : قدم العالم ، والمقولات العشر ، وما وراء الطبيعة في غايته ومبادئه ، وطبيعة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماما المشاكل المهمة التي كانت تشغل المفكرين عامة ، وتلاميذ أرسطو على الخصوص في ذلك العصر. وقد أجاب عنها ابن سبعين إجابة موسعة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ، وفي مقدور

من يرجع إليها معتمدا على بعض المصادر الأخرى، وخاصة كتابه: (مالا بد للعارف منه) أن يكون فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية .

ولسنا هنا بصدد هذا العرض المطول ، ونكتفي بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوع فلسفته . فالله في رأي ابن سبعين أصل العقول المتصرفة في الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والإنعام ، والعقل الفعال يدبر شئون الأرض ، ويمد الكائنات بصورها الثابتة ، فهو مصدر النفوس البشرية على الإطلاق . وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهي ميالة دائما إلى الاتصال به ، ولا يحول دونها إلا أدران الجسم وشهواته . فإذا ما تفرغ الإنسان للدراسة والنظر ، فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال .

هذه النظرية - كما ترى - تكرار حرفي لما قاله الفارابي وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطي كسابقيه من فلاسفة الإسلام ، وإن كان ينقدهم نقدا مرا . وقد أقام تصوفا عقليا على أساس فلسفي ، فهو صوفي على طريقة الفلاسفة ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والإلهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية . فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما «الحلاج» ، ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطا روحيا معنويا .

إذا .. فتصوف ابن سبعين ومن قبله السهروردي مؤسس على دعائم فلسفية . وفي رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائنا آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ، ويفيض عليه بالخلق والإبداع ، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ، فهو موجود أزلا بنفسه ودون حاجة إلى أي موجد آخر ، وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذا عرضي وبالتبعية . وعلى هذا .. ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز .

هذه هي نظرية وحدة الوجود التي اعتنقها جماعة من الصوفية ، حيث تكونت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، وانتشرت بعد ذلك في بلاد الأندلس والمشرق . ومن أكبر أنصارها : «محيي الدين بن عربي» المتوفى 1240م و«جلال الدين الرومي» المتوفى سنة 1273م ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس والعرب، ويصعد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ إلى الفارابي .

وإذا كان الله هو الموجود ، وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى ؛ وهنا يختلط التصوف بالفلسفة اختلاطا كبيرا . فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب في شخص الفلاسفة وجد ملجأ لدى الصوفية ، وكثير من الأفكار الفلسفية الممقوتة تبناها المتصوفة ، وأبرزوها في صور أخرى مقبولة ولو إلى حين . وفي رأينا : أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ التفكير الفلسفي الإسلامي في العصور الأخيرة دراسة كاملة ، منعزلا عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام .

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها، وما إن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام. «فالسهروردي» قتل بأمر «صلاح الدين»، و«ابن سبعين» انتحر في مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه في الغالب، واتهم معاصره ابن عربي بالإلحاد والزندقة من كثير من أهل السنة ، كذلك كان مصير «الحلاج» ... وغيرهم من فلاسفة المتصوفة .

* * *

جلال الدين الرومي

محمد بن محمد بن حسين الخطيبي البكري المعروف في التاريخ الإسلامي بمولانا «جلال الدين الرومي» من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث كانت ولادته عام 604هـ في بلخ ، ووفاته عام 672هـ بقونية التركية ، والذي يعتبر أكبر شعراء الصوفية الإيرانيين .

كانت أولى خطواته العلمية على يد والده الملقب بـ «بهاء الدين» وكان من أكبر رجال الصوفية ، وخليفة للشيخ «نجم الدين كبرى» . ولم يكتف بما تلقاه عن والده من العلم أو في مسقط رأسه بلخ ، وإنما رحل إلى بلاد كثيرة طلبا للعلم ، ونشرا لما حصله من علوم ومعارف . وفي أثناء هذا الترحال التقى في قونية بأستاذه ومرشده الصوفي الكبير «شمس الدين التبريزي» ، هذا الصوفي كان له أكبر الأثر على حياته الروحية ، والمذهب الصوفي الذي تبناه ، إلى درجة أنه جعل عنوان ديوانه منتسبا إلى هذا المرشد الذي علمه «ديوان شمس الدين التبريزي» .

ولم يقتصر جهده الأدبي والعلمي على هذا الديوان ، وإنما له العديد من المؤلفات الشعرية والنثرية المصطبغة بالصبغة الروحية ، ومنها كتابه المنثور وعنوانه : (فيه ما فيه) الذي ترجم إلى عدة لغات أجنبية ، واهتم به نفر من المستشرقين ، هذا بالطبع إلى جانب مؤلفات أخرى أهمها : ديوانه الكبير (مثنوي) الذي يعتبر أعظم آثاره ، وأهم كتاب في التصوف الإيراني ، حيث يقع في ستة مجلدات من الحجم الكبير والصفحات الكثيرة ، والمادة الغزيرة شعرا ، حيث يضم ما يقرب من الثلاثين ألف بيت شعر من بحر الرمل ، كأعظم ما كتب في الشعر .

هذا الديوان يعد من أروع كلاسيكيات الآداب الفارسية الإسلامية الروحية ، إن لم يكن أروعها جميعا . وعلى الرغم من أن هذا الديوان كتب في القرن السابع الهجري ، إلا أنه لم يفقد جدته ، فلا يزال القارئ المعاصر يجد فيه أفكارا جديدة ، وذلك فيما يصادفه من مشاكل في تعامله مع نفسه ثم مع المجتمع، أو في التسامى فوق صراع الحياة ومتطلبات العيش . وفي هذا الديوان بالذات قدم مولانا جلال الدين الرومي عالمه الخاص ، ومحاولته الرائدة لصب المعارف الإسلامية الأخرى ، فأخذ منه كل عصر زاده من المعرفة ، ومن السمو الروحي ، وتعرف عليه العالم : شرقه وغربه ، عربا أو أجانب من خلال ترجماته ، فعرف منه روح الإسلام السمحة العظيمة ذات البعد الإنساني الواضح ، التي تترفع عن التعصب وضيق الأفق .

كذلك .. فإن هذا الديوان ليس نصا صوفيا خالصا كما كان يشاع في العديد من الكتابات، بل هو نص متعدد الجوانب والمستويات، يهتم بتربية الإنسان على الأرض، قبل أن يصله بأسباب السماء ، ولعل ذلك جعل بعض المؤرخين والعلماء يعتبرونه من المجددين في الإسلام ؛ لأنه أتى بعمل إبداعي روحي ، يرتبط بالإسلام دينا ودنيا ، وهو ما جعله - ككتاب - يقرأ أكثر من مرة ، شأنه في ذلك شأن الكلاسيكيات العالمية التي لا تذهب جدتها بمرور الزمن ولا تفقد قيمتها على مر العصور .

ولعل ذلك أيضا جعل له أتباعا ومريدين كثيرين في إيران والهند وتركيا والعراق ، ومنهم تتألف طريقته الصوفية المعروفة باسم «المولوية». هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن هذا الديوان وغيره من كتابات مولانا «جلال الدين الرومي» جعلته من أكبر شعراء الحب في التصوف الإيراني . فالحب عنده دواء كبريائنا ، وفتنتنا بأنفسنا ، وطبيب ضعفنا، ومخلصنا من أثرتنا ، والعوالم الظاهرة في رأيه وجود وهمى ، أما وجود الله فهو الوجود الحقيقى ، وأن كل ذرة موجودة في العالم هى مظهر لصفة إلهية ، بل إن الإنسان نفسه هو المظهر الجامع لكل الصفات الإلهية . وغير ذلك مما سنتبينه في منهجه .

وهذا المنهج في التصوف ، وأساسه كما يذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» العشق الإلهي الذي يبلغ حد الجذب ، فيكون الترقي في مدارج الكمال .

هذا باختصار شديد : الإشارة إلى منهجه . وأما فلسفته في التصوف أساسها : وحدة الوجود ، تلك التي تلخصها قصته عن الأستاذ والتلميذ الذي كان في عينيه حول . حيث أمره الأستاذ أن يحضر زجاجة من إحدى الحجرات ، فعاد إليه وسأله أي الزجاجتين، لأنه اعتقد أن هناك زجاجتين ، وليس زجاجة واحدة . لكن الأستاذ أكد له أنه لا توجد غير زجاجة واحدة ، والتلميذ أكد من جانبه أنه توجد زجاجتان، وطالت المناقشة حول هذا الأمر، وهنا لم يجد الأستاذ معدلا من أن يطلب إليه أن يكسر إحدى الزجاجتين اللتين يراهما ، ويحضر الأخرى . فلما كسر التلميذ الزجاجة لم يجد أن هناك زجاجة أخرى كما كان يعتقد ويتوهم ، بسبب بصره الذي به حول . وعلم أن أستاذه كان على حق .. وهنا يقول الرومي : إن مضمون قصته هو نفسه مضمون الآية الكريمة التي تقول : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[1] . ثم يضرب مثلا مذكرا إيانا بعداوة اليهود للمسيحيين ، وعداوة المسيحيين لليهود ، ثم يقول : «كلاهما مظهر لأنوار الله» . فالناظر لأحدهما بالعداوة، وللآخر بالحب يشبه الأحول الذي يرى الشيء شيئين ، والحقيقة حقيقتين ، ويضرب مثلا بأنه في الحقيقة ليس عيسى إلا روح موسى ، وليس موسى إلا روح عيسى .

كذلك .. فإن للرومي فلسفة في الصلة بين الروح أو القلب والعقل .. والوصول إلى الحق له طريقان ، طريق الروح أو القلب والعقل . ويقول : عليك أن تقبل أوامر الروح ، ويقول : لا تحسب كل وسوسة بحثا وفكرا ، ولا تعتقد كل شيء صحيحا ، ولا تجعل لروحك سجنا وعذابا ، ولا تجعلها رهينة للنفس التي تأكل

(١) البقرة : ٢٨٥ .

وتشرب فقط ، ويقول : اجلسوا في المشهد المقدس بالحضور القلبي ، وإذا رأيت الروح واعظا ومذكرا فلا تكن وراء الستار ، بل اسمع من الروح ، ويقول : افتح عينيك لترى بنور العقل أن في كل ورقة شجرة ، وكل حبة نبات آثار تدل على أنه واحد لا شريك له ، العقل أعز من كل شيء وهو المفتاح والمصباح ، والعقل يهدي إلى الرشد ، ويأتي بالنصر في المعارك ، ويستدل به على وجود الله سبحانه وتعالى ، إلا أن هذا العقل منه : واصل ، ومنه ضال ، وكلاهما يطلق عليهما العقل . وعليك أن تعرف تفاوت العقول واختلافها. ولو كان هذا العقل كافيا لمعرفة الحقائق الدينية لكان «فخر الدين الرازي» أكبر العارفين . وأولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أعمق الناس علما ، وأقلهم تكلفا ، ولم يقرأوا كتاب حكمة ، ولم يتلقوا درس فلسفة .

ثم يتساءل مولانا جلال الدين الرومي : إلى متى العكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية ؟! .. هذه الفلسفة تباعد بين الإنسان والحقيقة وقفا ، وتورث الأخذ بالألفاظ والقشور .

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في أولياء الله الصالحين : «إنهم وصلوا ، ونالوا الكرامات؛ لأنهم سيطروا على نفوسهم بعقولهم ، ووجهوا عقولهم إلى الأنوار فأخذوا منها . ويقول في أطباء الروح : « هم تلاميذ الرحمن سبحانه وتعالى : انفلقت لنا البحار ، وتفجرت العيون من الأحجار » . ويقول : « إذا كنت منهمكا في الشهوات، فإبصارك مظلم ، ولا أمل لهدايتك ، ومن قتلت فيه شهوات الحس يكون له ذوق روحي يدرك به النور والحق ، والحياة الروحية تحتاج للحرارة والماء ، وحرارتها الدمع ، وماؤها لهيب القلب ولوعة الشوق إلى المبادئ العالية » .

ويقول عن كتابه الضخم (مثنوي) : « إنه أصل أصول الدين في كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[1] . يشرق إشراقا أنور من الإصباح ، وهو جنان الجنان ذو العيون والأغصان ، منها عين تسمى عند أبناء السبيل سلسبيلا ، وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاما وأحسن مقيلا .. وإنه شفاء الصدور وجلاء الأحزان وكشاف القرآن ، وسعة الأرزاق ، وتطييب الأخلاق » .

إلى آخر مقدمته لكتابه بأسلوب زمانه من السجع ، وبفكر أهل الصوفية العقلانيين ، ولهذا ولغيره .. اعتبر من مجددي الإسلام .

* * *

(١) النور : ٣٥ .

نصير الدين الطوسي

«نصير الدين الطوسى» : فيلسوف فارسى ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث ولد في مدينة مراغة قرب نيسابور عام 597 هـ ، وتوفي في بغداد عام 672 هـ بعد أن نزح إليها في مقتبل عمره وعاش بها ، وحتى لو تنقل منها ، فقد كانت تنقلاته إلى أقطار الأمة العربية ليتزود بالثقافات العربية الإسلامية .

هذا المجدد كان له شأن عظيم في العلوم العقلية الفلسفية ، وإلى جانبها كان له شأن آخر في الرياضيات والفلك والأرصاد ، ولذلك .. فإنه وقد حصل الكثير من المعارف من الحضارة الإسلامية ، فإنه في المقابل أعطى الكثير من المعارف ، يتضح ذلك من إنشاءاته العلمية الواضحة ، والأخرى الفكرية الجليلة النفع ، فقد أنشأ في مسقط رأسه (مدينة مراغة) مرصدا عظيما ، وكون خزانة ضخمة من الكتب العربية الإسلامية التي نهبت من روافد الأمة العربية الإسلامية في بغداد والشام والجزيرة العربية في عصر التتار ، (وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل) ، وعين منجمين لرصد الكواكب والنجوم ، وأوقف لهؤلاء المنجمين أوقافا يعيشون منها .

كانت لهذا المجدد منزلة كبرى في تاريخ الحياة العقلية والفلسفة الإسلامية ليس في البلدان العربية التي عاش فيها ، وتثقف منها ، بل أيضا عند الفرس حيث اعتبروه من كبار فلاسفتهم ومفكريهم وعلمائهم الذين كتبوا بالعربية وأثرها على لغتهم الفارسية التي لم يلجأ إليها إلا في القليل النادر لشرح بعض المعاني الفلسفية وتبسيط بعض الحقائق العلمية ، ولذلك يعده المؤرخون والعلماء من طراز الفلاسفة والمفكرين والعلماء الكبار من أمثال : ابن سينا ، وأبي الريحان البيروني ، وفخر الدين

الرازي، وصدر الدين الشيرازي، وغيرهم ممن لهم إسهامات عظيمة في بناء الحضارة العربية الإسلامية . وذلك لآثاره الفكرية التي بدت في مصنفات كثيرة منها في الفلسفة (تجريد العقائد) الذي يعرف باسم «تجريد الكلام» وهو كتاب شرحه وحققه بعد ذلك تلميذه «عبد الرازق اللاعجي» ونشره تحت عنوان : (شوارق الإلهام) ، وفي علم المنطق كتاب (أساس الاقتباس)، وفي التصوف (أخلاق ناصري) إلى جانب كتاب آخر عنوانه : (أوصاف الأشراف)، وفي الهندسة (تحرير أصول إقليدس)، وفي علم الهيئة (تحرير المجسطي)، وفي (الجبر والمقابلة) و(المتوسطات الهندسية) و(التذكرة في علم الهيئة) ، و(تحرير كتاب المناظر) ، و(تحرير الطلوع والغروب) ، و(تحرير المفروضات) ، و(ظاهرات الفلك) .

ولم يقتصر جهد هذا المجدد على بعض ما ذكرناه من آثار فلسفته وعلمه كأمثلة، وإنما له إسهامات أخرى في أمهات الأعمال لكبار العلماء والفلاسفة المسلمين حيث قام بشرح : (الإشارات) «لابن سينا»، و(تلخيص المحصل) «للفخر الرازي» و(بقاء النفس بعد تحلل أو بوار البدن) ، و(إثباتات العقل)، وغيرها من الأعمال الخالدة للعلماء والفلاسفة المسلمين السابقين عليه .

ومن الملامح والسمات الأساسية في شخصية وفكر هذا المجدد أنه كان متصلا بالشيعة ، وخاصة في جانب منها هو الإسماعيلية ، حيث كان على اتصال وثيق بكبار رجالاتها . وربما يكون ذلك لطبيعة مولده في فارس ، ثم انتقاله إلى بغداد في العراق وكلتاهما تعج بأتباع الشيعة إلا أن هذا الاتصال لم يؤثر في أحكامه العلمية والفكرية.

ولعل في قصة اتصاله بالتتار وزعيمهم «هولاكو» وعمله معه من الجوانب الإيجابية عند هذا المجدد . فقد أفاد هذا الاتصال الإسلام ولم يجلب له الضرر ، هذه القصة تبدأ من بعد استيلاء هولاكو زعيم التتار على بغداد، حيث وجد نفسه ملكا على شعوب من المسلمين تفوق التتر في علومها وحضارتها ، ووجد دولته في حاجة إلى

من يقوم بتدبيرها على أصول الحضارة الإسلامية من علماء المسلمين وحكمائهم ، ولم يجد أقدر على هذا من «نصير الدين الطوسى» ، فاتخذه حكيما ووزيرا، واصطفاه ناصحا ومشيرا ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه ، ويعرف فضل ما امتاز به من العلوم، وهو ملك وثنى غير متحضر، بينما كان ملوك المسلمين المعاصرون له في مصر وغيرها يتنكرون لهذه العلوم ، ويحاربون من يشتغل بها من المسلمين .

فاستغل نصير الدين الطوسى حاجة هولاكو إليه في نفع الإسلام والمسلمين ، وأخذ يجمع ما نهب من الكتب الإسلامية بعد سقوط بغداد بيد التتر، وابتنى لها خزانة عظيمة بمدينة مراغة ، كانت تحتوي على أكثر من 400.000 مجلد ، ولولا اهتمامه بجمعها لتلفت عند من لا يعرف قدرها من التتر وغيرهم ، وهذا ما حصل للمسلمين من النفع به في هذه المحنة التي نزلت بهم ، فأحيا ما ذهب من آمالهم ، واسترد ما ضاع من كرامتهم ، وانتفع بجاهه عند هولاكو كثير منهم وخصوصا الشيعة والعلويين والحكماء ومن إليهم ، فكان يبرهم ويقضي حوائجهم ويحمي أوقافهم ، لأنه كان على عقيدة الشيعة .

ثم أراد نصير الدين أن يبني مرصدا عظيما بمدينة مراغة ، فأقنع هولاكو بفائدته حتى بذل في بنائه ما لا يحصى من الأموال ، وقد جمع نصير الدين لبنائه جماعة من الحكماء ، منهم : المؤيد العرضي من دمشق ، والفخر المراغي من الموصل ، والفخر الخلاطي من تفليس : وابتدأ بناءه سنة 657 هـ - (1258م) . وقد سافر إلى بغداد في آخر أيام حياته ومعه كثير من تلامذته وأصحابه . فأقام بها عدة أشهر. ثم توفي بها سنة 672 هـ - (1273م). ودفن في مشهد موسى الكاظم .

وهكذا .. لم يمت نصير الدين إلا بعد أن جدد ما بلي في دولة التتر من العلوم الإسلامية ، وأحيا ما مات من آمال المسلمين بها ، وفتح الباب بعده لمن عمل على إدخال الإسلام في قلوب هؤلاء التتر ، ليكون لهم فتح ما فتحوا من بلاده ، ويكون

له فتح ما فتح من قلوبهم ، ومن يجدد للإسلام كرامته إلى ذلك الحد بعد أن ذهبت في هذا القرن .. ولهذا كان أولى من غيره بأن يكون هو المجدد فيه . لأن الانتصار على التتر لم يكن في الحقيقة يردهم عن الشام في موقعة عين جالوت .وإنما كان يفتح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم له ، فبهذا غلب الإسلام عليهم بعد أن غلبوه ، وأخضعهم لسلطانه الديني بعد أن أخضعوه لسلطانهم الدنيوي . وسلطان الدين أعلى شأنا وأعظم قدرا .

وقبل أن نختم الحديث عن هذا المجدد ، تجدر الإشارة إلى أمرين لمؤرخيه ، **أولهما** : يدور حول المنهج الذي اتبعه ، **والثاني** : يدور حول تجديده في الفكر الإسلامي .. وقد جرى نصير الدين على طريقة الفخر الرازي في الجمع بين الفلسفة وعلم الكلام . وألف في هذا كتابا موجزا سماه : (تجريد العقائد) ورتبه على ستة مقاصد : **الأول** في الأمور العامة ، **والثاني** في الجواهر والأعراض ، **والثالث** في إثبات الصانع وصفاته ، و**الرابع** في النبوة ، **والخامس** في الإمامة ، **والسادس** في المعاد . وهو كتاب موجز عليه شروح وحواش كثيرة لمن أتى بعد من العلماء ؛ ولكن نصير الدين كان أخلص للفلسفة من الفخر الرازي ، لأنه كان من الشيعة المتأثرين بمذهب المعتزلة ، والفخر الرازي كان من الأشعرية الذين ورثوا مذهب أهل السنة؛ ومذهب أهل السنة يتحرز من الفلسفة ، ولا يلين لها كما يلين مذهب المعتزلة ، ولهذا لم ترض طريقة نصير الدين من أتى بعده من أهل السنة ، ورضوا بطريقة الفخر الرازي ، لأنها تبحث مسائل الفلسفة في علم الكلام لإبطالها والرد عليها ، وإن كان بعضهم لم يرض عن هذا أيضا ، ورأى تحريم الاشتغال بالفلسفة مطلقا .

وعن تجديده في الإسلام ، فإنه رغم إسهاماته في هذا المجال ، إلا أنه لم يصل إلى المطلوب من المجدد في هذا القرن ، لأن غاية ما وصل إليه المحافظة على تراث المسلمين القديم في العلم والفلسفة ، فلم يحاول في الفلسفة ما حاوله فلاسفة أوروبا في هذا القرن ، مما كان مبدأ تحول خطير في الفلسفة والعلم ، وكان سببا في اتجاههما

إلى غاية جديدة سيكون لها أثر كبير في العالم ، وقد يعذر نصير الدين في تقصيره عن الوصول إلى ذلك ؛ لأنه نهض به ، وعوامل اليأس تحيط به من كل جانب ، ويكفيه أنه قام بذلك في دولة معادية للإسلام والمسلمين ، وهذا إلى أنه كان بعيدا عن مركز ذلك الاتجاه في العلم والفلسفة ، ولم يكن شأنه في هذا كشأن المسلمين الذين بقى لهم ملكهم في مصر والشام والمغرب والأندلس ، وكانوا يجاورون أوروبا التى وقع فيها ذلك الاتجاه الجديد في العلم والفلسفة ، وكان عليهم أن يتنبهوا إليه ويدركوا ما يصيب المسلمين بالتقصير فيه ، ولو فعلوا هذا لساروا بالمسلمين في ركب الحضارة الحديثة ، وجمعوا إلى مجدهم القديم مجدا حديثا .

* * *

السيد أحمد البدوي

هذا الرجل الصالح الذي يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ، جاء إلى مصر فرارا من عسف واستبداد دولة المرابطين للمغرب .. جاء من هذا القطر الشقيق ليستقر في مدينة طنطا بدلتا مصر .

أقبل على هذه المدينة المتواضعة – وقتئذ – من دلتا مصر نشوان مغتبطا .

صحيح .. أن طول السفر ومشقته ، وفيح الصحراء وترامیها ، قد أصابته بالضنى والألم .. بيد أن الغاية النبيلة التى كان يسعى إليها أنسته آلامه وجراحه ، وأفاضت على روحه بالبشر والسرور ، فدخل على هذه المدينة كأنه عابر سبيل طالت به مدة السفر والترحال من مدينة إلى أخرى ، ومن قطر إلى آخر ، فآوى إليها ليستريح ويتزود ، فربما يواصل السفر . ولكنه أبى واستقر ، والتف حوله الأتباع والمريدون من كل صوب وحدب ، ليكونوا فيما بعد طريقة صوفية لا تزال باقية حتى اليوم ، على الرغم مما مضى عليها من السنين والقرون .

هذا الرجل هو : «السيد أحمد البدوي» ، وأما المدينة : فهي طنطا ، عاصمة الغربية بمصر .. ويبقى السؤال : ما الذي جعل ابن المغرب في الشمال الإفريقي يجوب الصحارى والبلاد ، وينتقل من المغرب إلى المشرق ، مرورا بالمدن والأقطار المتعددة ليستقر في هذه المدينة الوادعة ، ويلتف حوله كل الأتباع والمريدين ، وتبقى تعاليمه وكلماته منقوشة داخل الصدور ، حتى وإن مات ودفن في هذه المدينة التى سرعان ما نسبت إليه .. حتى لا يكاد يذكر اسمها إلا ويقفز إلى الذهن ساكنها السيد أحمد البدوي وطريقته الأحمدية ؟

للإجابة عن هذا السؤال وغيره ... نقول :

تتفق روايات وكتابات المؤرخين حول حقيقة ، هي : أن هـذا الرجـل الـصالح من أصل عربي خالص ، انحدر من أشرف وأكرم البيوت العربية ، حيث ينتهي نسبه إلى الإمام «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه ، وقد انتقل أجداده إلى (مدينـة فـاس) المغربية في عصر الدولة الأموية فرارا مـن اضـطهاد «الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي» للعلويين . وفي المغرب ، تزوج هذا الجد الـشريف بابنـة أخ للـسلطان ، فولـدت لـه عليا، الذي تزوج بدوره من امـرأة عاليـة النـسب ، فولـدت لـه سـتة مـن الأبنـاء ، أصغرهم : أحمد .. الذي لقب فيما بعد بالبدوي ، وعرف بصاحب الطريقـة البدويـة أو الأحمدية الشهيرة على مستوى الوطن العربي .

وإذا كان اسمه أحمد بن علي حتى ينتهي نسبه إلى «علي الهادي بن محمـد الجـواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمـد البـاقر بـن عـلي زيـن العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» رضوان الله عليهم .. فإن اسـمه يتـضمن تسعة أئمة من الأئمة الاثني عشر المعروفين في المذهب الشيعي ، وأن نسبه ينتهـي إلى الإمام الحسين وليس الإمـام الحـسن رضي الله عـنهما . وهـذا عـلى خـلاف مـا هـو معروف من أن صوفية المغرب الذين هم مـن أصـل مغـربي ينتهـي نـسبهم دائـما إلى الحسن كما يقر الدكتور «عامر النجار» في كتابه عـن : (الطـرق الـصوفية في مـصر) ، وكما يقرر الدكتور «علي صافي» في كتابه : (الأدب الصوفي في مصر في القـرن الـسابع الهجري) . بقوله : «وأما صوفية المشرق في العـراق ومـصر والـشام وفـارس وبـلاد خراسان ، فإنهم عودونا الانتساب إلى الإمام الحسين . والسبب في انتساب المـشارقة إلى الإمام الحسين ، والمغاربة إلى الإمام الحـسن راجـع فـيما أعتقـد إلى : أن المـشارقة كانوا كالشيعة في محاولة الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطة . أما الـذين انتـسبوا إلى الإمام الحسن فكانوا يدعون إلى الخلافة الباطنية غير حافلين بشيء في خلافة أهل

الظاهر ، حيث زعموا : أن الله – سبحانه وتعالى – عقد للحسن الخلافة الباطنية بعد أن تنازل لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة الظاهرية » .

معنى هذا : أن الذين ينتسبون إلى الإمام الحسين يدعون إلى الخلافة الظاهرية ، في حين أن الذين ينتسبون لأخيه الإمام الحسن وهم المغاربة – يدعون إلى الخلافة الباطنية .

ومعنى هذا أيضا : أن السيد أحمد البدوي إذا كان ولد ونشأ بالمغرب ، فإنه عاد إلى أصوله بالمشرق ، لأنه حسيني النسب ، وهو ما تؤكده لوحة حياته التي صيغت باتفاق جميع المؤرخين ؛ حيث هاجرت أسرة السيد أحمد البدوي – والده «علي» وجميع أشقائه – إلى مكة المكرمة . وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس بالمغرب إلى مكة بالحجاز حوالي أربع سنوات ، وقد مروا بمصر في طريقهم ، وعاشوا فيها فترة تقدر بحوالي ثلاث سنوات .

وكما يسجل الدكتور «عامر النجار» في كتابه عن : (الطرق الصوفية بمصر) : «ويقال عن قصة انتقال أسرة السيد أحمد البدوي من فاس إلى مكة : أن أباه عليا جاءه الهاتف في المنام – أن يا علي ، ارحل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة ؛ فإن لنا شأنا – فرحل بأسرته ..» .

ولندع شقيق السيد أحمد البدوي– ويدعى: الشريف حسن– يروي ذلك قائلا: «فما زلنا ننزل على عرب ، ونرحل عن عرب ، فيتلقوننا بالترحيب والإكرام . حتى وصلنا إلى مكة المشرفة في أربع سنوات» .

ويواصل روايته إلى أن يقول : « فلما وصلنا إلى مكة ، وعلم الناس بقدومنا هرعوا إلينا ، وسلموا علينا ، واعتقدوا فينا الخير . وأتى إلينا سلطان مكة وأشرافها، فجاءوا إلينا ، وتعرفوا بنا . وسأل السلطان : أين الشريف أحمد الملثم ؟ اجمعوا بيني – أي السلطان– وبينه ، فإن جدي الرسول– ﷺ– وصفه لي، وأراني صفته في المنام،

وقال لي : يخرج من المغرب ، وهو ابن سبع سنين ، ويدخل مكة وهو ابن أحد عشر عاما . وأشار لي - أي : السلطان - أن أسير إليكم ، وأجتمع بكم ، وأسلم عليكم ، وعلى الشريف أحمد الملثم - أي : أحمد البدوي - وأتبرك به . وقال لي : إنه سيظهر له حال ، وأي حال ويربي المريدين ، يجيء منهم رجال ، وأي رجال . فقال له والدي : إن هذا الولد حديث السن ، ولا يقدر على هذا الحال ! فقال السلطان : أعد ، إن جدي رسول الله - ﷺ - أراني صفته ، ففي أنفه شامة سوداء من كل ناحية أصغر من العدسة ، وهو أقنى الأنف ، صبيح الوجه . فلما حضر أخي أحمد - أي : البدوي - ورآه السلطان عرفه بالصفات فقام إليه واعتنقه وأجلسه إلى جانبه » .

ولعل وصف «الإمام الشعراني» في كتابه (الطبقات الكبرى) يؤكد ما ذهبت إليه هذه الرواية على لسان شقيق السيد أحمد البدوي، حيث يصفه قائلا: «كان غليظ الساقين، طويل الذراعين ، كبير الوجه، أكحل العينين، طويل القامة ، قمحي اللون، وكان في وجهه ثلاث نقط من أثر جدري ، في خده الأيمن واحدة ، وفي الأيسر اثنتان.. أقنى الأنف ، على أنفه شامتان في كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح موسى ... » .

ومن هنا .. يتضح أن أسرة السيد أحمد البدوي قد سافرت- أولا - إلى الحجاز، وأما السبب المباشر لذلك فهو لاضطراب الأحوال في بلاد المغرب ؛ إثر قيام دولة المرابطين واضطهادهم لأتباع دولة الموحدين ، ومنهم : أسرة السيد أحمد البدوي، التي استقرت بالحجاز حيث توفي عائلها الشريف (علي بن إبراهيم) ، ودفن هناك . وكانت وفاة هذا العائل نقطة تحول في حياة الابن أحمد البدوي . فقد عكف على العبادة ، وامتنع عن الزواج ، واعتزل الناس ، وعاش في صمت لا يفصح عما يجول في خاطره ، وأصبح في حالة وجد وولهٍ دائمين إلى أن سافر إلى العراق ، حيث رأى رؤيا تأمره بالرحيل إليها .

ولعل هذا هو السبب في رحيله إلى العراق ، أو لعله كما يذهب الدكتور «سعيد عبد الفتاح عاشور» حيث ينبه إلى هذه الرحلة في كتابه عن السيد أحمد البدوي قائلا: «يبدو أن السيد أحمد البدوي أدرك أن مكة – مع عظيم مكانتها – كانت أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله – ففكر في الهجرة منها إلى بلد واسع الإمكانات البشرية والمادية » فكانت : مصر .

ومهما يكن السبب ، فالثابت تاريخيا أن السيد أحمد البدوي سافر إلى العراق ، وزار «أم عبدة» مركز الطريقة الرفاعية ، كما زار قبر السيد «عبد القادر الجيلاني» . وفي العراق تشبع بمبادئ كل من القطبين : الرفاعي والجيلاني ، ماضيا في سلوكه من الصمت والصوم ، والقيام ، وقراءة القرآن الكريم . حتى قرر الرحيل إلى طنطا بمصر ، في عهد «الملك الكامل محمد الأيوبي» .

ولم يكن تأثير السيد أحمد البدوي مقصورا على المدينة التي اختارها مقاما لحياته، ومدفنا له بعد مماته ، وهي طنطا ، وإنما امتد تأثيره ، فشمل القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية ، وذلك عن طريق أتباعه ومريديه الذين انتشروا في شتى البقاع ، والذين عرفوا «بالسطوحية» ، حيث كان قطبهم السيد أحمد البدوي يجلس على سطح منزله أثناء لقائه بالمريدين والأتباع . واستمر على هذا النحو حتى توفي عام 675هـ ، ودفن في المكان الذي كان يتعبد فيه بطنطا ، وهو الذي أنشئ عليه المسجد الأحمدي فيما بعد .

* * *

مرزوق اليماني

من اليمن الشقيق ، جاء «مرزوق اليماني» ليستقر في واحد من أحياء القاهرة العريقة واسمه : حي الجمالية ، ويستفيد من علمه الكثيرون ، ويحتل في التاريخ الإسلامي مكانة مجدد في القرن السابع الهجري .

لكن .. لماذا قطع هذا الرجل الصالح هذه المسافات الطويلة حتى يصل إلى المكان الذي عاش فيه ومات ؟ الإجابة تقول : إن لوصول هذا الرجل الصالح إلى مصر سببا ربما لا نتوقعه من رجل من الصوفيين .

ولكى نعرف هذا السبب وغيره ، فلنتأمل سيرة حياة هذا القطب الذي ولد باليمن عام 604هـ .. وتوفي ودفن بمصر سنة 677هـ إنه كان حسينيا نسبا ، حيث ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين رضى الله عنه . شافعيا مذهبا ، حيث اتبع مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، أحمديا طريقة ، حيث سلك طريقة السيد أحمد البدوي .

وتذكر المصادر والمراجع: أن هذا القطب نشأ وترعرع في كنف والدين فقيرين، غير أنه لم يكد يشب عن الطوق ، ويبلغ الحادية عشرة من عمره : حتى صدم بوفاة والديه ، ليتركاه وحيدا في هذه الدنيا . وطبيعى أن تكون لهذه الحادثة أثرها على حياته . فهناك من يرى أنها كانت بمثابة نقطة التحول ؛ إذ لم يطب له العيش باليمن، ومن هنا .. ألحت عليه فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام الواسعة ، تلك التي تموج بالأحداث والمحن الناتجة عن هذه الهجمة الضارية من الصليبيين .

وكما تقرر هذه الكتابات : أن فكرة الجهاد في سبيل الله سيطرت عليه بشكل ملحوظ ، وفي مقدمة هذه الكتابات ما كتبه المقريزي في تأريخه له ، والدكتورة «سعاد

ماهر» في كتابها عن (مساجد مصر) وأوليائها الصالحين .. نعم ، لقد كانت هذه الفكرة تراود قلوب الشباب وقتئذ ، حيث وقر في النفوس أن الإسلام في خطر ، وأن هناك من يريد القضاء عليه ، ولذلك وجب الجهاد ، فهو فريضة إسلامية .

وفي هذا .. تذكر الدكتورة سعاد ماهر في كتابها قائلة : « إننا لا نشك في أن الرؤيا التي أخذت تلح على «مرزوق اليماني» ، وتكررت له ثلاث ليال متتالية ، ولم يجد بدا من أن يقصها على جدته التي كانت تكفله بعد الموت المبكر لوالديه ، وفحوى هذه الرؤيا ، أن شيخا عربيا تدل عليه أمارات الهداية .. يأمره بالانتقال من اليمن إلى مصر ... » .

هذه الرؤيا كانت سببا آخر- بعد الرغبة في الجهاد عن دار الإسلام- ولذلك .. قرر السفر والهجرة بعيدا عن مسقط رأسه باليمن .

وعلى عادة غيره من الصالحين الذين هاجروا من بلدانهم إلى مصر ، لم يتوجه إليها مباشرة ، بل قصد مكة المكرمة أولا ، حيث التقى بعلمائها وفقهائها ، وانكب على ما وقع بين يديه من كتب ومراجع ، يتزود منها ما شاء الله له أن يتزود من الثقافة والعلم ، ولم يكتف بذلك ، وإنما أنفق بعض الوقت في الارتحال من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، طلبا للمزيد من المعرفة على أيدي أهل العلم هناك .

وفي المدينة .. سمع الأخبار المؤلمة عن قرب اقتحام الفرنجة الصليبيين للمدينة المنورة ، وهو ما أهاج المشاعر ، حيث تدنس أقدام هؤلاء الفرنجة أرض مدينة الرسول وهو ما لا يرضاه أي مسلم على الأرض ، ففيه اعتداء على المقدسات الإسلامية ، وأي اعتداء !

والحق .. أن «صلاح الدين الأيوبي» قد واجه هذا الأمر الجلل بكل حسم وعزم ، وهو ما لا ينساه له التاريخ . وإذا عدنا إلى مرزوق اليماني ، فإننا نراه كمسلم لم يرض لنفسه أن يظل هكذا غير إيجابي تجاه الأحداث ، وهو ما لا يرضاه له دينه ،

ولهذا .. أعد نفسه للسفر إلى مصر ؛ لينضم إلى فلول المجاهدين في سبيل الله ضد هذه الهجمات ، كغيره من المتطوعين المسلمين الذين تدافعوا إلى مصر والشام طلبا للتضحية والفداء .

ووصل إلى مصر ، وأصبح له فيها شأن عظيم ، فها هو ذا «الأمير الكامل» ابن شقيق صلاح الدين الأيوبي ، يثق في علمه ويجعله مشرفا على المدرسة الكاملية بالجمالية بالقاهرة ، وهي تعد ثاني مدرسة بعد دمشق التي أسست من قبل لتفسير الحديث الشريف .

وعلى عادة غيره من المتصوفة ، اتخذ مرزوق اليماني خلوة في حي الجمالية ، قريبة من المدرسة الكاملية ، خاصة بعد لقائه بالقطب : أحمد البدوي في القاهرة ، وروايته له الرؤيا التي كان قد رآها باليمن ، والتي كانت سببا في التفكير في السفر . ولم يكد ينتهي من قصته ، حتى قام السيد أحمد البدوي من فوره ، وألبسه العمامة الحمراء ، وأعطاه العهد الوثيق يدا بيد ، فكان ذلك نقطة تحول جديدة في حياة اليماني ، حيث أصبح الخليفة الأول للقطب أحمد البدوي .

لقد كان في لقاء هذين القطبين الكبيرين : أحمد البدوي ، ومرزوق اليماني نفع كبير تحقق على أيديهما للإسلام والمسلمين .

والجدير بالذكر .. أن مرزوقا اليماني تولى قيادة المحمل الذي تتبرع به مصر للسعودية منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر حتى وفاته . وذلك بعد حادثة تناقلها الرواة ، مؤداها : أن هذا الجمل أسرع الخطى إليه عندما رآه ، وقد بقي هذا التقليد في ذريته من بعده جيلا بعد جيل ، حتى توقف المحمل .

* * *

القبـــاري

الرجل الصالح : «أبو القاسم محمد بـن منـصور بـن يحيـى» الـشهير بالقبـاري السكندري من مجددي القرن السابع الهجري . هذا الرجل كانت له مواقف عظيمة ، قدره أهل زمانه كما احترمها أهل الحكم .. لكن قبل الدخول في تفاصـيل ذلـك ممـا يتصل بحياته تجدر الإشارة إلى خطر انتشار التصوف في القرن الـسابع الـذي عـاش فيه هذا الصوفي حيث ولد عام 587هـ ، ولكي نعرف انتشار هـذا الخطـر لابـد مـن التعرف على الحالة السياسية والعلمية في هذا القرن .

فالحالة السياسية ، يمكن إجمالها في هذا القرن بأنهـا كانـت ضـعيفة إلى حـد كبـير ، بسبب اشتغال الدول الإسلامية بحروبهـا الداخليـة ، الأمـر الـذي جعلهـا غافلـة عـن الأخطار الخارجية التي تهددها من الشرق والغرب على حد سواء، فتسقط بهذه الحروب الداخلية دولة ، وتقوم دولة ، بعد أن يفنى فيها عدد من الدولتين ، ويتبع هـذا مـا يتبعـه من ضعف عام للدولة الإسلامية من الناحية السياسية كما بينا في مقدمة هذا القرن .

وكذلك كانت حالة المسلمين العلمية . فقد اكتفوا بما وصلوا إليه من علومهم ، ولم يهتموا إلا باختصار الكتب المبسوطة التي وضـعها أسـلافهم الأقـدمون . وكـان هذا لا يحصل إلا نادرا فيما قبل هذا القرن . وممن عني بهذا «ابـن الحاجـب» ، الـذي كانت له مختصرات في أصول الفقه والنحو ... وغيرهما . وقد قصد هو وغـيره بهـذا أن يـسهلوا عـلى طـلاب العلـوم الإحاطـة بهـا ، فلـم يكـن همهـم فيهـا إلا سرعـة الاستحضار ، وكـان هـذا تمهيـدا لمـا سـيؤول إليـه أمـرهم في العنايـة بـشرح هـذه

المختصرات ، وفقدان ملكة الابتكار في العلوم ، وتأخرهم فيها عن غيرهم . مع أنه كان من المفترض أن يكونوا متقدمين .

يضاعف من انحدار الحالة العلمية بوجه عام في هذا القرن : زيادة العداء للفلسفة ، حتى إنه كان لا يشتغل بها في هذا القرن إلا نفر منهم في حذر وخفية ، لما كان من قوة نفوذ رجال الدين ، خاصة المتصوفة الذين حرم البعض منهم قراءة المنطق والفلسفة . ومن عجيب الأمور .. أن الملوك كانوا يطيعونهم في ذلك . وربما يكون ذلك لسببين : أولهما ظاهري ، وهو العمل على إرضاء رجال الدين . وثانيهما خفي ، وهو الخوف من إعمال العقل الذي يتطلبه الاشتغال بالفلسفة والمنطق والذي لن تكون نتيجته في صالح هؤلاء الملوك .

وطبيعي .. أن يزيد ضعف الحالة العلمية من نفوذ المتصوفة حتى يزيد خضوع العلماء لهم . وكان لظهور أقطاب التصوف – ومنهم السيد أحمد البدوي ، والسيد إبراهيم الدسوقي وغيرهما – أثر كبير على زيادة نفوذ المتصوفة وما يدعون إليه .

ونتيجة لذلك : أن علا شأن أقطاب التصوف على شأن الملوك والعلماء ، حتى أذعن المسلمون لدولة التصوف الباطنية ، أكثر مما أذعنوا لدولهم الظاهرة ؛ لأن دولة الباطنية في نظرهم هي التي تصرف أمور الكون في الحقيقة ، وليس للملوك الدنيا إلا تصرف ظاهر في دولهم . وقد بلغ من هوان أولئك الملوك بإزاء رجال الدولة الباطنية ممن لم يصلوا إلى درجة الأقطاب المعترف بهم وبعلمهم أن يخاطبوهم بما لا يليق ، مما ذكره «المقريزي» في خططه دليلا على أن هؤلاء المتصوفة الصغار كانوا يستخفون عمدا برجالات الدولة من ملوك وأمراء وعمال .

في هذا القرن .. ولد أبو القاسم القباري بالإسكندرية ، ونشأ وترعرع ومات ودفن بها. وكان كغيره من المتصوفة مرهوب الجانب، حتى وإن كان ليس على شاكلة

هؤلاء الذين يستغلون التصوف لمصالحهم الخاصة ؛ حيث كان يختلف عنهم في أنه من الزاهدين في كل شيء ، فلم يكن له بالإسكندرية ولد ولا صاحب ، إذ لم يتزوج طيلة حياته ، ولم ينغمس في نعيم الحياة ومباهجها ، وإنما كان عاكفا عازفا عن كل ذلك . وكما يقول أحد مؤرخيه القدامى ، واسمه «محمد زيتون» : « لم نعرف من أسرته غير والده «منصور» ، وجده «يحيى» ، وأخيه الذي مات بالإسكندرية فورثه الشيخ القباري » .

ويذكر الشيخ الحافظ «صدر الدين السلفي الأصفهاني» في معجمه أن : معنى كلمة القباري هو نسبة إلى ثمرة القبار التي كان الشيخ يفضل أكلها فيقول : « لقد بقي القباري ثلاثة وستين عاما لم يأكل من اللحوم إلا ما يصطاده من البر أو البحر ، ولم يشرب لبنا أو يأكل جبنا .. زهدا وورعا واكتفى بأكل القبار المباح » .

ويصف «ابن العماد» الشيخ القباري في كتابه : (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) بالورع والتقوى ، فيقول عنه : «كان صالحا قانتا منقطع النظير في الورع..» .

وفي هذا المعنى يقول أيضا «المناوي» في كتابه : (الكواكب الدرية) عن الشيخ القباري : « إنه كان زاهدا ، أخلص في العمل ، واجتهد في قطع الأمل ، ومال إلى العزلة ، واستعد للرحلة .. كان كثير الخشوع والخضوع، مشهور الذكر بين الصوفية. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. » .

وإذا كانت هذه بعض جوانب حياة هذا الشيخ الصوفي ، فإن سلوكه مع ملوك وحكام زمانه كان من الأمور التي تشد الانتباه ، حيث تحدثنا في ذلك المصادر التاريخية – وفي مقدمتها ما كتبه مؤرخه «محمد زيتون» ، أو ما رواه «ابن المنير» – من: أن الملك نجم الدين أيوب كان يسعى دائما لرضا هذا الشيخ الصوفي ، وأن «الظاهر بيبرس» كان يحرص على زيارته والاستماع إلى وجهات نظره في تسيير أمور

دولته ، وأن السلطان «قايتباي» قام بتكريمه بعد وفاته التي كانت عام 650هـ تقديرا لعلمه وفضله .

ولعل انتساب حي بأكمله في الإسكندرية وهو : حي القباري إليه ، لخير دليل على مكانة هذا الشيخ الجليل . وفي هذا الحي مسجد كبير يحمل اسمه ويتوسطه ضريح يضم رفاته . ويحرص المؤرخون على الإشارة إليه تأكيدا على تخليد ذكرى هذا الرجل الصالح .

* * *

القـزويني

من مجددي القرن السابع الهجري : القاضى القزوينى ، الذي يعرفه تاريخ العلم في الإسلام «بأبي عبد الله زكريا بن محمد بن محمود» ، حيث يـصعد نـسبه إلى الإمـام مالك. ولد في قزوين (بين مدينتى رشت وطهران) سنة 605 هـ - 1208 م، ورحـل في شبابه إلى دمشق ، وتعرف إلى «ابن العربي» ، ثـم اسـتقر في العـراق ، فـولي قـضاء واسط والحلة في خلافة المستعصم العباسى . وكان في ذلك المنصب عنـدما سـقطت بغداد في قبضة المغول . وتوفي في السابع من المحرم سنة 682 هـ - 1283 م .

وكان - إلى اشتغاله بالقضاء - معنيـا بالتـأليف في الجغرافيـا والتـاريخ ، وقـد عرف من كتبه فيهما :

الكتاب الأول : عجائب المخلوقات : تكلم فيه عن السماء وما فيها - وهو علم الفلك - فوصف الكواكب والأبراج وحركاتها ، وما يترب عـلى ذلـك مـن فـصول السنة والشهور والأيام . وتكلم عن الأرض وما عليهـا - وهـو مـن قبيـل التـاريخ الطبيعى أو الجغرافيا الطبيعية - فذكر أصل الأرض وطبيعتها ، وكرة الهواء وأصول الرياح وأنواعها . وكرة الماء وما فيها من البحار والجـزر والحيوانـات العجيبـة ، ثـم كرة الأرض - أي اليابس- وما عليها من جماد ونبـات وحيـوان ، ورتـب كـلا مـن الحيوانات والنبات على حروف المعجم .

الكتاب الثاني : آثار البلاد وأخبار العبـاد : في التـاريخ ، ابتـدأه بعـد الديباجـة بثلاث مقدمات :

الأولى في الحاجة الماسة إلى أحداث المدن والقرى . والثانية في خـواص الـبلاد ، وقسمها إلى فصلين :

الأول : في تأثير البلاد في السكان .

الثاني : في تأثير البلاد في النبات والحيوان .

ثم أفاض بعد ذلك في أخبار الأمم الماضية وتراجم كثير من الأولياء والعلماء والسلاطين والشعراء والوزراء والكتاب ... وغيرهم .

الكتاب الثالث : خطط مصر .

الكتاب الرابع : الإرشاد في أخبار قزوين .

شغف بالفلك والطبيعة ، والنبات ، والحيوان ، والجيولوجيا بنوع خاص . ويعتبر كتابه : (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) من أنفس مؤلفاته. كان يوصي بإدامة النظر في عجائب صنع الله ، ولا مراء في أنه كان مستغرقا بالنظر في آيات الله البينات في مصنوعاته ، وغرائب إبداعه في مبتدعاته .مسترشدا بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1] يقول: «وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحوها ، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه . ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها ، فهو مشارك للبهائم في ذلك وأدنى حالا منها ، وأشد غفلة ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ ﴾[2] إلى أن قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[3] » يقول : « والمراد من النظر : التفكر في المعقولات ، والنظر في المحسوسات ، والبحث عن حكمتها وتصاريفها ، لتظهر له حقائقها ، فإنها سبب اللذات الدنيوية ، والسعادات الأخروية. ومن أمعن النظر فيها ازداد من الله تعالى : هداية ويقينا، ونورا وتحقيقا. والفكر في المعقولات لا يتأتى إلا لمن له خبرة بالعلوم والرياضيات ، بعد تحسين

(١) ق : ٦ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

الأخلاق وتهذيب النفس ، فعند ذلك تتفتح له عين البصيرة . ويرى في كل شيء من العجب ما يعجز عن إدراك بعضها بعضا » .

يقول أبو عبد الله : « لقد حصل لي بطريق السمع والبصر والفكر والنظر حكم عجيبة وخواص غريبة ، فأحببت أن أقيدها لتثبت ، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تفلت» . وإنه ليوصي قارئ كتابه بادئ ذي بدء ، بأنه إذا أراد أن يكون على ثقة مما في كتابه ، فليشمر للتجربة ، وإياك أن تفتر أو تمل إذا لم تصب في مرة أو مرتين ، فإن ذلك قد يكون لفقد شرط أو حدوث مانع . فإذا رأيت مغناطيسا لا يجذب الحديد ، فلا تنكر خاصيته ، واصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله ، حتى يتضح لك أمره.

ولاشك أن القارئ لكتاب القزويني (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) إنما يتملكه الإكبار والإعجاب بدقة الملاحظة ، والبراعة في العرض ، والسلامة في الاستنتاج والاستقراء ؛ مما يؤيد رأي «روزنتال» في علماء المسلمين ، من أن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة ، أو أخذوه من الرواية ، وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة ، وبصفتهم مفكرين مبدعين ، فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في كثير من العلوم والرياضيات والفلك .

وبدأنا نقرأ ما كتبه العالم الجليل الدكتور «عبد الحليم منتصر» عن «القزويني» ، حيث قدم القزويني لكتابه بمقدمات أربع ، تعتبر دستورا رائعا لكل مشتغل بالعلم عامة وبالعلوم الطبيعية بصفة خاصة ، فضلا عن الإشارة الجامعة فيها إلى موضوعات الكتاب . قال في **المقدمة الأولى** : «لننظر إلى الكواكب وكثرتها ، واختلاف ألوانها ، فإن بعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها يميل إلى البياض ، وبعضها إلى لون الرصاص ، ثم إلى سير الشمس وفلكها مدة سنة ، وطلوعها

وغروبها كل يوم ، لاختلاف الليل والنهار ، ومعرفة الأوقات ، وتمييز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، ثم إلى جرم القمر ، وكيفية اكتسابه النور من الشمس ، لينوب عنها في الليل ، ثم إلى امتلائه وانمحاقه ، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمر ، ثم إلى ما بين السماء والأرض من الشهب والغيوم والرعود والصواعق والأمطار والثلوج والرياح المختلفة المهاب . ولنتأمل السحاب الكثيف المظلم ، كيف اجتمع في جو صاف ، لا كدورة فيه ، وكيف حمل الماء وكيف تتلاعب به الرياح وتسوقه وترسله قطرات متلاحقة ، لا تدرك قطرة منها قطرة ، ليصيب وجه الأرض برفق ، فلو صب صبا لفسد الزرع ، ثم إلى اختلاف الرياح ، فإن منها ما يسوق السحب ، ومنها ما ينشرها ، ومنها ما يجمعها ، ومنها ما يعصرها ، ومنها ما يقتلع الأشجار ، ومنها ما يروي الزرع والثمار ، ومنها ما يجففها . ثم لننظر إلى أنواع المعادن المودعة تحت الجبال، منها ما ينطبع كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص.. ومنها مالا ينطبع كالفيروز والياقوت والزبرجد ، وكيفية استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الحلي والآلات والأدوات منها ، ثم إلى معادن الأرض، كالنفط والقير والكبريت ، وأنواع النبات وأصناف الفواكه . ثم لننظر إلى أصناف الحيوان وانقسامها إلى ما يطير ويقوم ويمشي ، وانقسام الماشي إلى ما يمشي على بطنه، وما يمشي على رجليه ، وما يمشي على أربع ، وإلى أشكالها وألوانها وصورها وأخلاقها وأفعالها كالنمل والعنكبوت والنحل ، وكيف تبني بيوتها ، وتجمع غذاءها وادخارها القوت لوقت الشتاء ، وحذقها في هندستها » . يقول «القزويني» : «إن من يشاهد خلية النحل لتزداد حيرته عندما يعلم أنه من عمل النحل ، ومن حيث إن ذلك الحيوان الضعيف قد صنع هذه المسدسات المتساوية الأضلاع ، التي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة ، ومن أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه بيوتها المتساوية ، والتي لا تخالف بعضها بعضا كأنها أفرغت في قالب واحد ، ومن أين لها هذا العسل الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء ، وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها ،

وأنها تفقد فيه الغذاء ، وكيف اهتدت إلى تغذية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه ، فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه أي شيء».

وجعل القزويني يتابع الدعوة إلى النظر في الأرض ، وكيف كانت قرارا ومكانا لصنوف المعادن والنبات والحيوان ، وإحكام أطرافها بالجبال الشامخات ، تمنعها أن تميد ، وإلى إبداع أوشال المياه ليخرج منها قليلا قليلا فتنفجر منها العيون ، وتجري منها الأنهار ، وإلى خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء ، وإلى إنبات المرجان في صميم الصخر تحت الماء .

ويتحدث القزويني في **المقدمة الثانية** عن تقسيم المخلوقات، فيقول : «المخلوق، كل ما هو غير الله سبحانه وتعالى ، وهو إما أن يكون قائما بالذات أو قائما بالغير. والقائم بالذات ، إما أن يكون متحيزا أي : يشغل حيزا ، أو لم يكن ، فإن كان متحيزا فهو الجسم ، وإن لم يكن فهو الجوهر الروحاني . ثم يتكلم عن الإدراك للكليات والإدراك للجزئيات ، وعن الأعراض المحسوسة بالحواس الخمس ، فالمحسوسات بالقوة الباصرة كالأضواء والألوان ، وبالقوة السامعة كالأصوات والحروف ، وبالقوة اللامسة (كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والثقل والخفة والصلابة واللين والخشونة والملامسة ، وبالقوة الشامة للطيب والنتن)» .

وفسر القزويني في **مقدمته الثالثة** لكتابه ما يقصده بالغريب، فقال: « هو كل أمر عجيب ، قليل الوقوع ، مخالف لمألوف العادات ، ومعهود المشاهدات كمعجزات الأنبياء ، كانشقاق القمر ، وانفلاق البحر ، وانقلاب العصا ثعبانا ، وكون النار بردا وسلاما، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ومنها الإصابة بالعين، فإن العائن إذا تعجب من شيء كان تعجبه مهلكا للمتعجب منه بخاصية لنفسه لا يوقف عليها. ومنها اختصاص بعض النفوس من الفطرة بأمر غريب، لا يوجد مثله لغيرها، كما ذكر أن في الهند قوما إذا اهتموا بشيء اعتزلوا عن الناس ، وصرفوا همتهم إلى

ذلك الشيء، فيقع على وفق اهتمامهم. ومنها أمور سماوية كانقضاض شهب يستضيء الجو منها ، وسقوط جسم ثقيل من الجو أو سقوط ثلج أو برد في غير أوانه ، ومنها صيرورة اليبس بحرا وصيرروة البحر يبسا، أو وقوع خسف تناحيه من الأرض وخروج ماء أسود منها ، ومنها الزلزلة أو ظهور نبت بأرض لا عهد للناس بوجوده هناك ، ومنها تولد حيوان غريب الشكل لم ير مثله».

وتحدث القزويني في **المقدمة الرابعة** عن تقسيم الموجودات ، فقال : «إن كل موجود سوى الواحد سبحانه مخلوق ، وإن إحصاء الموجودات غير ممكن ، ولكنها منقسمة إلى ما لا نعرف أصلها ، ولا يمكننا النظر فيها ، وإلى ما نعرف جملتها ولا نعرف تفصيلاتها ، ولا يمكننا النظر فيها ، وإلى ما نعرف جملتها ولا نعرف تفصيلها ، وهي منقسمة إلى ما لا يدرك بالبصر ، كالعرش ، والكرسي ، والملائكة، والجن ، والشياطين ... وغيرها فمحال النظر فيها . وأما المدركات بالبصر ، كالسماوات والأرض ، وما بينهما مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها ودورانها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها وبحارها وأنهارها ومعادنها ونباتها وحيوانها . وما بين السماء والأرض وهواء الجو ، مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعودها وبروقها وصواعقها وشهبها وعواصف أرياحها». يقول : «فهذه أجناس المشاهدات، وكل جنس ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع إلى أصناف .. وهكذا ».

وقد قسم القزويني كتابه إلى مقالات ، كل مقالة تشمل عدة فصول . وقسم الكون إلى : علوي وسفلي ، وقد عني بالعلوي : ما يتعلق بالسماء من كواكب وبروج ومدارات ومجرات والشمس والقمر . وتحدث عن كواكب الزهرة والمريخ والمشتري وعطارد، وزحل، وعن كسوف الشمس وخسوف القمر. قال عن القمر : «إن جرمه كثيف مظلم ، قابل للضياء إلا القليل منه ، على ما يرى في ظاهره ، فالوجه الذي يواجه الشمس مضيء أبدا » . وقال في خسوف القمر : «إن سببه توسط الأرض بينه وبين الشمس، فيقع في ظل الأرض، ويبقى على سواده الأصلي فيرى منخسفا، وعلى

الخسوف الكلي والخسوف الجزئي للقمر». وربط القزويني بين حركتي المد والجزر وبين تحركات القمر ، قال : «إذا صار في أفق من آفاق البحر ، أخذ ماؤه في المد مقبلا مع القمر، ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط السماء ذلك الموضع، فإذا صار هناك بلغ المد منتهاه ، فإذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء ، ولا يزال كذلك راجعا إلى أن يبلغ القمر مغربه ، فعند ذلك يبلغ الجزر منتهاه ، فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ، ابتدأ المد مرة ثانية . وهكذا .. فيكون كل يوم وليلة بمقدار مسير القمر فيها ، في ذلك البحر مدان وجزران ». كما ربط بين زيادة القمر ونقصانه، وبين كثير من الظواهر والمظاهر عند الإنسان والحيوان والأسماك والحشرات والأشجار والفواكه والرياحين ، ويقول : «إن هذا الأمر ظاهر عند أهل الطب ، وإن ذلك معروف عند أهل الطب ، وإن ذلك معروف عند أهل الفلاحة».

وهكذا .. يعدد قدرة الخالق عز وجل فيما خلق ... وهي ملاحظات استبق بها القزويني علماء التجريب المحدثين في أوروبا ، ولهذا ولغيره من أفكاره .. يعتبر من المجددين .

* * *

المرسي أبو العباس

من مدينة مرسيه بالأندلس العربية في الزمن القديم (إسبانيا) في الزمن الحديث، يفد هذا الرجل الصالح ليستقر بالإسكندرية ، ويكون واحدا من مجددي القرن السابع للهجرة ، كما سنرى من تاريخ ميلاده ووفاته .

وقد كانت أصول طريقته مستمدة من تعاليم أستاذه «أبي الحسن الشاذلي» . وهي: تقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، واتباع السنة في الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الخلق في الإدبار والإقبال ، والرضا بما قسم الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء .

وكان كأستاذه «أبي الحسن الشاذلي» يدعو أتباعه إلى السعي للرزق ، وإلى العمل ، وكان يكره من المريد لطريقته التعطل وسؤال الناس . وكثيرا ما حث أتباعه على الأخذ بأسباب العمل - أيا كان العمل - بشرط أن يكون شريفا .

وكان هو بالنسبة لأستاذه «أبي الحسن الشاذلي» كالشيخ الإمام «محمد عبده» إلى السيد «جمال الدين الأفغاني» .. فقد كان أبو العباس المرسى تلميذا لأبي الحسن الشاذلي وصفيه ، وصديقه ، بل أكثر من ذلك صهرا له ، حيث تزوج ابنة أستاذه الشاذلي رضي الله عنهم جميعا .

ذلك هو القطب الصالح أبو العباس المرسى ، الذي أوصى أستاذه أبو الحسن الشاذلي أتباعه به قبل أن يموت - لما رأى منه من تقوى وصلاح وحب للخير - قائلا : « عند مماتي عليكم بأبي العباس المرسي ، فإنه الخليفة من بعدي» .

وأبو العباس المرسى من أسرة عربية ضاربة الجذور في العروبة ، على الرغم من أنه ولد عام 616هـ بمدينة مرسية إحدى مدن «بلنسية» بالأندلس «إسبانيا الآن» حيث ينتهى نسبه إلى الصحابي الجليل «سعد بن عبادة» كبير الأنصار وسيد الخزرج من ناحية ، وقيس بن سعد الذي عين واليا على مصر من قبل أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضى الله عنه .. ولأنه ولد ونشأ في «مرسيه» بالأندلس فقد غلبت عليه تسميته بأبي العباس المرسى، فعرف في كثير من الكتابات باسم «شهاب الدين أبي العباس أحمد بن على الخزرجى الأنصاري المرسى البلنسى » . غير أن هذا الاسم يختصر إلى: «أبي العباس المرسى» ، وهو ما اشتهر به بعد ذلك، حيث انتقل من مسقط رأسه «مرسية» بالأندلس إلى غيرها من البلاد ، وآخرها مصر ، حيث كانت وفاته بها عام 685هـ بعد حياة امتدت إلى تسعة وستين عاما .

أما كيف انتقل من بلدة «مرسية» إلى مصر والإسكندرية ليدفن فيها ، وليكون له أتباع ومريدون ، فإن لذلك قصة – يمكن تبين بعض خيوطها من المادة المفيدة عن هذه الشخصية الصوفية التي كتبها الأستاذ «جمال الدين الشيال» .

تبدأ خيوط هذه القصة حيث كان أبوه «عمر بن على» يعمل تاجرا ، وتبعا لتقاليد التجار وقتئذ كان هذا الأب يريد أن يعد أولاده لاحتراف التجارة من بعده ، حفاظا على أمواله واسمه بين التجار . ولما استكمل أبو العباس المرسى تعليمه ألحقه أبوه بأخيه ، وأصبح الأب يعتمد على ولديه في إدارة تجارته والإشراف على شئونها.

وطبيعى.. أن يكتسب هذا الفتى– الذي أصبح شابا– تجارب من دنيا التجارة ، حيث تفرض على العاملين بها أن يتصلوا بمختلف البيئات والطبقات ، مما يتيح للتاجر فرصة التعرف عن قرب بأخلاق الناس وطباعهم .

ويستمر على هذه الحالة مثابرا على عمله في التجارة ، وفي الوقت نفسه مطلعا على ما يتيسر له من علوم عصره ، حتى يبلغ الرابعة والعشرين ، ويصبح مكلفا ، ويصطحبه والده مع بقية الأسرة : (أمه وأخيه الأكبر) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

كان من الصعب على هذه الأسرة، أن تسلك في هذه الرحلة الطويلة من مرسية بالأندلس إلى مكة والمدينة بالحجاز طريق البر . عندئذ آثرت أن تسلك طريق البحر، لتستقل سفينة تبحر بهم بحذاء الشاطئ الإفريقى ... ولكنها لم تكد تمضى أياما حتى هبت عليها عاصفة شديدة ، راح بسببها كل من كان على السفينة بما فيهم الأب والأم ، ولم ينج منهم سوى أبي العباس المرسى وأخيه الأكبر ، حيث قدر لهما النجاة ، ووصلا إلى البر سالمين ، ليتخذا طريقهما إلى المشرق ، إلى أن وصلا إلى تونس ، وفيها آثر الإقامة بها الأخ الأكبر ، واتجه إلى مهنته القديمة ، وأما الأخ الأصغر أبو العباس المرسى ، فقد أراد أن يفيد غيره مما حصل من معارف وعلوم ، فاتخذ لذلك دارا متواضعة ، قام فيها بتعليم الصغار والصبية القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن الكريم وتفسيره .

وفي تونس ، يلتقي أبو العباس المرسى بشيخه وأستاذه أبي الحسن الشاذلي ، الذي كان قد سمع بعلمه وفضله وتقواه ، فسعى لمقابلته والجلوس إليه ، والتعلم منه . ويلازمه ملازمة ظله . حتى إذا عزم أبو الحسن الشاذلي مغادرة تونس متجها إلى مصر كان أبو العباس المرسى في صحبته ، حتى وصل معه إلى الإسكندرية . وفي هذا يقول أبو العباس المرسى : «كنت مع الشيخ في السفر ، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذني ضيق شديد ، حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن ، فلما أحس بي قال لي : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل به الأرض ليكمله . ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلفه ، حيث يقول : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1] ما قال في السماء ولا في الجنة ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف . فأنزله سبحانه وتعالى إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته . وأنت أيضا لك قسط من آدم ، كانت بدايتك

(١) البقرة : ٣٠ .

في سماء الروح في جنة التعريف ، فأنزلت إلى الأرض لتعبد الله بالتكليف ، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة الله في أرضه .. » ، وعلق أبو العباس المرسى على ذلك قائلا : « فما انتهى الشيخ أبو الحسن من هذه العبارة حتى شرح الله صدري ، وأذهب عني ما كنت أجده من الضيق والوسواس » .

وعن أبي الحسن الشاذلي تلقى أبو العباس المرسي كيفية الجمع بين الفقه والتصوف ، وهو ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس التصوف التي تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد ، والزهد والعبادة ، ولا تستلزم في كثير من الأحيان المعرفة بالعلوم الظاهرة ، لقد أتقن أبو العباس المرسي العلوم الدينية إتقانا تاما . حتى كان من يتحدث إليه في شيء منها ينصر مطلبه مدركا بأنه لا يحسن إلا هذا العلم . وقد عاونه على طلب التعلم والتبحر فيه كتب كثيرة في التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف اطلع عليها ، حتى عرف بين معاصريه بالتبحر والنبوغ في العلوم الإسلامية ، مع تخصصه ونبوغه في علوم الحقيقة وأصول الطريقة، حتى كان يقول: «شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه » .

ولما تقدمت السن بأبي الحسن الشاذلي وفقد بصره ، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شئون أتباعه، رأى أن يستخلف تلميذه وصفيه وزوج ابنته: أبا العباس المرسى على إدارة شئون دعوته ، فأعلن استخلافه له في حفل جامع بين أتباعه في مسجد العطارين بالإسكندرية ، وقد اضطلع بالقيام بهذه المهمة خير قيام ، فكان يشرف على أتباع الطريقة ، ويلقنهم الدروس ، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم ، ملازما لشيخه وأستاذه أبي الحسن الشاذلي ، حتى إذا كانت سنة 656هـ عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج إلى الحج ومعه نخبة من أتباعه ، يتقدمهم أبو العباس المرسى. وفي الطريق مرض الشيخ مرضا شديدا لم يمهله طويلا حتى مات قبل أن يدخل الأراضي المقدسة ، ليدفنه تلميذه أبو العباس ، ويستأنف رحلة الحج التي من بعدها

يعود إلى الإسكندرية ، ويتخذ مجلس أستاذه وشيخه الراحل ، فيشيع ذكره ، ويشتهر أمره ، ويقصد الناس من كل مكان يسألونه المعرفة ، ويلتمسون منه البركة .

وهكذا .. أصبح معلوما لدى الأتباع والمريدين أن أبا العباس المرسى يتسم بعدة صفات ، منها : عبادة الله كأنه يراه .. وكراهية التكلف والتظاهر بالزهد والمسكنة ، والادعاء والرياء – ومن هذه الصفات أيضا : عزة النفس ، والتعفف عما بأيدي الناس ، والثقة كل الثقة بالله عز وجل ، حتى إنه كان يقول لأتباعه : « والله ما رأيت العزة إلا في رفع الهمة عن الخلق . وما رأيت السلامة في الدنيا إلا بترك الطمع في المخلوقين » . ولهذا كان لا يسعى إلى مقابلة سلطان أو أمير ، ولا يرجو من أي منهما توسطا أو شفاعة ، أو حتى إنه إذا جاءه أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام في حاجة له ، يقول له أبو العباس المرسي : « أنا أطلب لك ذلك من الله ..» .

حضر إليه يوما لزيارة الأمير «علم الدين سنقر» ، وهو مدير السلطنة ، وصاحب الحول والطول في عهد «السلطان قلاوون» ، فما طلب منه أبو العباس المرسى شيئا ، حتى إذا قال له أحد أتباعه : يا سيدي ، اطلب من هذا الأمير أرضا يزرعها أصحابك . فرفض رفضا باتا ، وكان يردد دائما : « اللهم ، اغننا عنهم ، ولا تغننا بهم ، إنك على كل شيء قدير » وأقام أبو العباس في الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة ، حتى توفي ، لم يحاول خلالها أن يزور والي المدينة أو أن يقصده في طلب أو شفاعة ، في الوقت الذي كان الوالي يلح في طلب لقائه والتحدث إليه ، كان دائم الرفض والامتناع عن لقائه . وبقي على هذا الحال من الزهد والتقشف ، والإباء والتعفف ، حتى توفى بالإسكندرية عام 685هـ تاركا بعده عددا من التلاميذ الأفذاذ الذين يتقدمهم : ابن عطاء الله السكندري والبوصيري وابن الحاجب وياقوت العرش .

* * *

ابن النفيس

«علاء الدين أبو العلاء علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المصري بن النفيس» من مجددي القرن السابع الهجري ، من أكبر أطباء العصور الوسطى العرب ، ينتسب إلى سوريا ، حيث ولد بقرية القرشي ، وظل بها حتى بلغ العشرين ، ثم هاجرها إلى مصر ، حتى كانت وفاته عام 687 هـ عن عمر يناهز الثمانين كما يسجل الدكتور «يوسف زيدان» في مقدمة كتاب «رسالة الأعضاء» لابن النفيس ، ذلك الذي حققه حيث نقرأ دراسته عن ابن النفيس ومنهجه وإبداعاته .

ونحن إذا استثنينا تاريخ وفاته، فإنه لم يسجل من وقائع سيرته إلا القليل النادر، وشاهد ذلك : أن ابن أبي أصيبعة ، الذي كان من معاصريه ، لم يذكر ابن النفيس في كتابه عن تاريخ الأطباء . على أنه ولد في دمشق نحو عام607 هـ (1210م) ودرس بها الطب في المستشفى الذي أنشأه «نور الدين بن زنكي» في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وهو المعروف بالبيمارستان النوري . وكان أول أساتذته هو «مهذب الدين عبد الرحيم بن علي» المعروف بالخوار (توفي عام 628 هـ -1230م) الذي جاء من مدرسة ابن التلميذ التي انتقلت من بغداد إلى الشام ، وقام بتعليم عدد كبير من التلاميذ . ودرس ابن النفيس إلى جانب الطب ، النحو والمنطق والفقه ، وأصبح حجة مشهورا في الفقه الشافعي . وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث عين رئيسا لأطباء مصر ، والراجح أنه عمل في المستشفى الناصري. ودرس ابن النفيس الفقه في المدرسة المسرورية بالقاهرة ، وكان حجة مبرزا في اللغة العربية، وموضع التقدير البالغ من معاصره «بهاء الدين محمد بن النحاس» . وتوفي ابن النفيس

بالقاهرة في الحادي والعشرين من ذي القعدة عام 687هـ (18 ديسمبر سنة 1288م) بالغا من العمر نحو ثمانين عاما (بالسنوات القمرية) وورث بيته ومكتبته للمستشفى المنصوري الذي أنشأه السلطان قلاوون ، وكان قد تم بناؤه حديثا (683هـ - 1284م). وكان ابن النفيس في ميدان التأليف على جانب كبير من الأهمية ؛ فقد كان أصلا يشتغل بشرح الكتب وتفسيرها ، ولكنه كان مستقل الفكر واسع المعرفة ، ويقال إنه كتب معظم مصنفاته من ذاكرته دون الرجوع إلى الكتب . وأكبر مصنفاته الطبية (كتاب الشامل في الطب) وكان في ثلثمائة مجلد ، وقد ظل ناقصا لم يتم ، ولم يصل إلينا منه شيء . وله كتاب على جانب كبير من الأهمية في أمراض العين يسمى (كتاب المهذب في الكحل) وهو محفوظ بالفاتيكان . على أن أكثر كتبه انتشارا هو (الموجز) لقانون ابن سينا ، وقد اختصره لأغراض عملية ، طبع لأول مرة عام 1228م ، وقد وضعت شروح وحواش عدة لهذا الكتاب على مر القرون ، وأقبل الأطباء الهنود على دراسته بشغف حتى عهد قريب. ونذكر أول ما نذكر من شروحه: شرحه لمبادئ أبقراط الذي شاع استخدامه في المشرق ، وهو منتشر في كثير من المخطوطات ، وقد طبع في فارس عام 1298هـ (1881م)، وله شرح لأوبئة أبقراط، محفوظ باستانبول، وهناك مجموعة كاملة من الشروح الموسعة لقانون ابن سينا، محفوظة بصفة خاصة في المتحف البريطاني . ويوجد في«ليدن» شرح على كتاب (مسائل في الطب) لـ «حنين ابن إسحاق» ، وقد بقي من كتب ابن النفيس الدينية كتاب في سيرة الرسول هو (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) وهو محفوظ في مكتبة القاهرة ، وكتاب آخر في أصول الحديث هو (مختصر في علم أصول الحديث) . وكتب ابن النفيس في الفقه شرحا على التنبيه «للشيرازي» والظاهر أنه لم يصل إلينا . ويقال إن ابن النفيس كتب في الفلسفة شرحا لكتاب (الإشارات) وآخر لكتاب (الهداية في الحكمة)، لابن سينا، ولم يصل إلينا أي منهما .

واكتشف أخيرا طبيب مصري شاب أن ابن النفيس في كتابه (شرح تشريح ابن سينا) (وهو مخطوط لم يطبع بعد) وصف الدورة الصغرى أو الدورة الدموية الرئوية وصفا صحيحا يخالف وصف ابن سينا وجالينوس كل المخالفة ، وذلك قبل أن يكتشفها الأوروبيون بثلاثمائة سنة تقريبا .

ولتسجيل جهود ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية قبل غيره من العلماء الأجانب والعرب ، نرجع إلى الصفحات الخاصة بالتحقيق العلمي الممتاز الذي قام به الدكتور «يوسف زيدان» لابن النفيس ، خاصة بكتابه (رسالة الأعضاء) فأوضح الكثير من الجوانب الغامضة ، كما أظهر الجوانب الخافية على الكثير من المهتمين بهذا المجدد المسلم، سواء من العرب أو الأجانب. فننقل من هذا الكتاب (بتصرف لا يخل بموضوع المادة الخاصة بهذه الدورة الدموية الرئوية والأخرى الدموية الكبرى) ، وهو الاكتشاف الذي قامت عليه شهرة ابن النفيس بين معاصرينا ، مع بداية الربع الثاني من القرن العشرين ، فقد كان الطبيب المصري «محيي الدين التطاوي» في بعثة علمية لإعداد رسالة الدكتوراه بجامعة فرايبورج الألمانية ، فوقع مصادفة على مخطوط لابن النفيس بعنوان : (شرح تشريح القانون) فاكتشف بعد سبعة قرون ، أن ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى، فقدم رسالته للدكتوراه وأفصح فيها عن هذا الاكتشاف ، فتشكك أساتذته هناك ، وأرسلوا إلى المستشرق «ماكس مايرهوف» يستفتونه ، فأفتى بعد حين بأن المعلومات صحيحة.. فنال التطاوي مع درجة الدكتوراه ، فضل الكشف عن هذه المسألة ، وبيان سبق ابن النفيس على غيره من الأوروبيين بعدة قرون .

وتفصيل الدورة الدموية الرئوية عند ابن النفيس ، يمكن الرجوع إليه في العرض الذي قام به ابن النفيس بعنوان: فصل في تشريح القلب .. وفي الاستعراض الذي قام به الدكتور «بول غليونجي» في كتابه القيم الموجز عن ابن النفيس .

وقد أثار هذا الاكتشاف مشكلة مترتبة عليه ، مؤداها : هل مارس ابن النفيس التشريح ؟ وقد جاءت إجابات المستشرقين بالنفي، ثم قدم الدكتور «بول غليونجي» العديد من أدلة الإثبات .. لكن السؤال الأهم هنا : هل عرف ابن النفيس الدورة الدموية الكبرى ؟

وتشير الكتابات الخاصة بعملية اكتشاف الدورة الدموية إلى الدورة الرئوية فقط ، فقد جاءت رسالة التطاوي للدكتوراه بعنوان : «الدورة الدموية الرئوية تبعا للقرشي». ومن خلال ذلك يتضح أن المسألة تخص الدورة (الرئوية) فقط، وهو نفس ما نراه في كتاب «بول غليونجي» عن ابن النفيس بسلسلة أعلام العرب .

وفي مخطوطة ابن النفيس (رسالة الأعضاء) التي حققها الدكتور يوسف زيدان نراه يقول: «والقوى تقوم بأجسام» ويجب أن تكون تلك الأجسام لطيفة جدا ، ليمكن أن تنفذ إلى الأعضاء الطرفية من مبادئ تلك القوى بسرعة ، وهذه الأجسام هي الأرواح ، وهذه الأرواح لاشك أنها تكون سريعة التحلل ، فصحت ضرورة أن يكون في البدن ما يستقل بتوليدها كل وقت ليقوم المتولد منها مقام ما تحلل ، وذلك هو القلب ، وقد جعل في قرب الوسط ، لأنه أولى المواضع بالجور ، وليكون ما صفا منه من الروح متوجها إلى الأعضاء على الوجه العدل » ، ثم يعاود ابن النفيس تفصيل الأمر في رسالته الكاملية ، فيقول ما نصه : « وشاهد القلب في الصدر وبطنه الأيمن مملوء بالدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح في الشرايين إلى الأعضاء، ثم ينبسط فترجع تلك الروح فيه ، وحينئذ ينجذب إليه الهواء من الرئة ، وهي تجذب الهواء من الخارج ، فينفذ بها من الأنف والفم مارا في الحنجرة وقصبة الرئة ، وذلك إذا انقبضت الرئة، وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك الحجاب وعضلات الصدر لها » .

وإذا أضفنا لهذين النصين ، بعض نصوص ابن النفيس الواردة في (رسالة الأعضاء) كقوله في بداية الفصل الثامن : «والجوهر الروحي ممتلئ بالهوائية..» ، وقوله عن ضرورة حركة الشرايين : «ولولا ذلك ، ما كان يمكن أن ينبسط الشريان وينقبض » ، وملاحظته في بداية الفصل الخامس عشر : «إن كل ما له دم ، فله قلب».

فمن خلال هذه النصوص يمكن لنا أن نضع الصورة المتكاملة لتصور ابن النفيس للدورة الكبرى ، فهو بعد أن وضع تصوره للدورة الرئوية ؛ حيث يتحرك الدم من القلب إلى الرئة ، ثم يعود محملا بالهواء ، فهنا لا يقال عنه إنه دم ، بل أرواح (إذ الجوهر الروحي هو الممتلئ بالهوائية) ، ثم يجتمع الغذاء مع الهواء بهذه الأرواح التي يصفها بأنها (حاملة القوى) وينقبض القلب الذي لابد من وجوده في كل حيوان له دم، فتنتشر هذه الأرواح في الجسم عبر الشرايين ، التي تنبسط هي الأخرى وتنقبض ليسهل نفاذ الأرواح إلى الأعضاء الطرفية من القلب (الذي جعل في الوسط ، لأنه أولى المواضع بالجور) وبعد ذلك ينبسط القلب ، فتعود إليه الأرواح بعد تغذية الأعضاء لتندفع مرة أخرى بعد أن تمتلئ بالهواء والغذاء .. وهكذا ..

وقد وقع ابن النفيس في بعض الأخطاء : منها عدم قدرته على اكتشاف الشعيرات الدموية الواصلة بين الشرايين والأوردة ، والتي تحتاج رؤيتها لأدوات لم تكن متوافرة في عصره ، ولذلك فهو لم يفطن إلى أن رجوع الدم إنما يكون في الأوردة وليس الشرايين ، كما أخطأ في عدم إدراكه لطبيعة امتصاص الغذاء في الخملات المعوية ، وقوله إن هذا الامتصاص يكون في الكبد ؛ ولذلك قال إن الأوردة المتصلة بالكبد هي التي تحمل الغذاء ؛ ومع ذلك ، فلقد وضع ابن النفيس تصورا مبتكرا وجديدا للدورة الدموية الكبرى ، واستطاع أن يقترب من طبيعة حركة الدم في الجسم ، وهي الحركة التي وضع «هارفي» شكلها النهائي في مؤلفه (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان) ، وهو المؤلف الذي ظهر سنة 1628

ميلادية، بعد أن كانت مؤلفات ابن النفيس قد ترجمت إلى اللاتينية ، فكانت هذه الترجمات واحدة من الطرق التي تسرب منها الطب العربي إلى الغرب ليستكمل الغرب الأبحاث الطبية ، ويصل إلى ما وصل إليه اليوم .

وهكذا .. يرجع الفضل لابن النفيس في بيان الخطوط العريضة لدورتي الدم في الجسم ، بحيث يضاف اكتشافه للدورة الدموية الكبرى ، لما سبق أن توصل إليه «التطاوي» من معرفة ابن النفيس بالدورة الدموية (الرئوية) ، وبذلك تكتمل الدائرة الخاصة بحركة الدم .. ولكن ، ما السر في سهو «التطاوي» و«ماكس مايرهوف» و«غليونجي»- و من جاء بعدهم - عن معرفة اكتشاف ابن النفيس للدورة الكبرى، واقتصارهم على الحديث عن الدورة الصغرى فحسب ؟ ..... والإجابة عن ذلك بكتاب (رسالة الأعضاء) تكمن فيما يلي :

1- أنهم اعتمدوا فقط على كتاب (شرح تشريح القانون) ، وهو من مؤلفات ابن النفيس المبكرة ، والسابقة على (رسالة الأعضاء) ولم تتح الفرصة للتطاوي ، ولا لغيره ، أن يطلع على تلك المؤلفات التي وضعها ابن النفيس في أخريات حياته .

2- إن ابن النفيس قد اقتصر على وصف الدورة الصغرى في (شرح التشريح) ، لأنه كان يتناول تشريح أعضاء الصدر ، فلم يتجاوز ذلك إلى غيره ، لارتباطه بما ورد أصلا في قانون ابن سينا ؛ ومن هنا التزم ببيان حركة الدم داخل القفص الصدري .. ولعل ابن النفيس لم يكن قد توصل بعد للدورة الكبرى حين كتب شرح التشريح .

* * *

البيضـــاوي

عبد الله بن عمر بن على أبو الخير ناصر الدين البيـضاوي : مـن مجـددي القـرن السابع الهجري حيث ولد عام 613هـ وتوفي عام 691هـ في تبريز بإيران ، وقد تـولى منصب قاضي القضاة في شيراز ، وكان ينتسب للمذهب الشافعي السني .

اشتهر البيضاوي بسعة العلـم ، والكتابـة في عـدة موضـوعات منهـا : تفـسير القرآن ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والنحو . كـما عـرف بالاختـصار في تناولـه للموضوعات . وكان أهم كتبه : (أنوار التنزيل وأسرار التأويـل) الـذي اعتمـد فيـه على تفسير الزمخشري المعروف بـ (الكشاف) ولكنه توسع كثيرا في التفسير ، مستعينا في ذلك بمصادر أخرى .

ويعتبر أهل السنة أن تفسير البيضاوي أفضل التفاسير ، وله في أنفـسهم مكانـة عظيمة ؛ حيث يمتاز هذا الكتاب كغـيره مـن كتـب البيـضاوي بتركيـز الكثـير مـن المعلومات في أسلوب مختصر لا إسهاب فيه . على الرغم من أن هذا الكتاب يفـصح عن علم واسع ، تشوبه آراء معتزلية – حيث كان البيضاوي كأسـتاذه «الزمخـشري» معتزليا – حاول أن يصوبها ويصححها ، فحينا كان يفنـدها ، وحينـا كـان يحـذفها . ولكنه كان في بعض الأحيان يبقى عليها ، وكان يقول : أنـه طالمـا رغـب في إخـراج كتاب يضم خير ما عرفه من أئمة الصحابة وأوثق التابعين ، وأهل التقى والفضل في الزمن الأول هؤلاء هم الذين – بدون شك – عـلى مـستوى مـن العلـم والفـضل . يشهد لهم ذلك أنه كان يضمن كتابه إشارات إلى ثمرات أبحـاث الأسـلاف ، فهـذا الكتاب شأنه مثل شأن بقية كتبه يحتوي الكثير من الفصول المعتمدة على الأسـلاف ، إلا أنه مع ذلك نراه يضيف إليها ، وبالمثل : قراءاته على القـراء الـسبعة المـشهورين ،

فيجعلهم ثمانية بعد إضافة يعقوب البصري إلى السبعة . كما يحتوي على القراءات الخاصة لواحد أو لآخر من القراء المعترف بهم ، وكان ثمرة ذلك كتابا ذاع صيته في الأوساط العلمية والفكرية ، ومن ثم طبع عدة طبعات ، وكتب على أجزاء - أو على أجزاء منه - عدة حواش ، وقد أحصى المستشرق الألماني «بروكلمان» منها ثلاثة وثمانين ، ثم ذكر كتابين لفتا النظر إلى المواضع التي عجز البيضاوي عن أن يزيل منها آراء الزمخشري المتأثرة بالمعتزلة لتداخل المعاني .

ومن طبعات تفسير البيضاوي الكثيرة : الطبعة التى قام بها «فليشر» في مجلدين، وقد أعد فهارسها المستشرق «فل» عام 1878م ، ثم طبعة القاهرة عام 1330هـ في أربعة أجزاء يضمها مجلدان ، وعليها شرح الخطيب الكازروني ، وقد قررت على طلبة جامعة الأزهر .

ومن كتب الإمام البيضاوي : كتاب (منهاج الوصول إلى علم الأصول) وكتاب : (الغاية القصوى) وهو رسالة ضافية في علم الفقه ، وكتاب : (لب الألباب في علم الإعراب) في علم النحو ، وكتاب : (مصباح الأرواح) وكتاب : (طوالع الأنوار من مطالع الأنظار) وهو دراسة جادة في علم النحو . هذه الكتب وغيرها كثير ، كتبها البيضاوي باللغة العربية .

وقد كتب البيضاوي أيضا بالفارسية : - لغته - كتبا كثيرة : كتاب (نظام التواريخ) الذي نشر في إيران وحيدرآباد عام 1930م ، وهو يتناول تاريخ العالم حتى سنة 685هـ وغيرها من الكتب ، سواء بالعربية أو الفارسية . تلك التي تعد مراجع أصيلة في البحث في العلوم التى كانت ضمن اهتماماته .

وقد توفي- كما قلنا- عام 691هـ ، وهو التاريخ المتفق عليه عند أغلب المؤرخين والعلماء .. إلا أن أحدهم وهو «اليافعى» سجل هذا التاريخ ، ونقل كما يذكر رواية أخرى تقول أنه توفي عام 716هـ ، وهو ما عارضه المؤرخ «جلال الدين السيوطى» في تأريخه ، مؤكدا أن هذا التأخر في تاريخ الميلاد ربما يكون احتمالا ، ولكنه غير يقين.

* * *

البوصيري

الإمام «شرف الدين أبو عبد الله الصنهاجي» المعروف في التاريخ الإسلامي بالإمام البوصيري : أحد مجددي القرن السابع الهجري ... من أئمة الصوفية ؛ لتبحره في التصوف ، ولسعة معرفته في علوم الدين ، إلى جانب شاعريته التي تميز بها حتى أصبح لا يذكر اسمه إلا وتذكر معه قصيدته الخالدة في مدح الرسول - ﷺ - المعروفة «بنهج البردة» والتي مطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم

وسميت هذه القصيدة «بنهج البردة» ؛ لأنها كانت على نهج قصيدة البردة التي أنشدها «كعب بن زهير بن أبي سلمى» في مدح الرسول - ﷺ - والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنها :

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

وأما لماذا سميت قصيدة كعب بن زهير بالبردة ، وقصائد الشعراء الذين جاءوا بعده ومدحوا النبي بنهج البردة؟ فلذلك سبب، هو: أن كعب بن زهير بن أبي سلمى، وقد كان شاعرا مخضرما ، أدرك الجاهلية والإسلام ، هجا الرسول - ﷺ - في واحدة من قصائده ، فأتى تائبا بعد فتح مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ..

وجاء الرسول - ﷺ - منشدا قصيدته المشهورة ، فخلع عليه الرسول - ﷺ - بردته ، وأعطاه إياها .. استحسانا لشعره وإظهارا لعفوه ، ومن هنا سميت قصيدته : «البردة» .

ومن عجيب الأمور .. أن بردة الرسول - ﷺ - كرداء توارثها أبناء كعب ابن زهير ، واحتفظوا بها طوال عصر الخلفاء الراشدين ، إلى أن جاء معاوية بن أبي سفيان فاشتراها من ورثة كعب بن زهير بعشرين ألف درهم ليلبسها بعد أن تولى الخلافة ، وصارت هذه البردة إرثا لخلفاء بني أمية ، فكانوا يلبسونها في المناسبات والأعياد الإسلامية تبركا بصاحبها الرسول - ﷺ - . كما توارث الشعراء اسمها بقصائدهم في مدح الرسول مع تحريف بسيط هو «نهج البردة» أي : على غرار البردة وكان من بينهم «الإمام البوصيري» .

ومن هنا .. ندرك أن البوصيري يجمع إلى تفقهه في الدين البلاغة في القول ، فقد كان شاعرا من الشعراء المجيدين . والدليل : قصيدته نهج البردة وغيرها من قصائد . ولعل هذا يدعونا إلى التعرف عليه أكثر وأكثر .

فهو الشيخ الصالح : شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد الصنهاجي المعروف بالبوصيري، نسبة إلى قرية «بوصير» وهي موطن أمه، وأحيانا كان يلقب بالدلاصي، نسبة إلى قرية «دلاص» موطن أبيه .

غير أن نسب البوصيري ينتهي إلى أصول مغربية ، حيث كان أبوه من أحفاد صنهاجي بالمغرب العربي ، حيث يذكر على مبارك في خططه التوفيقية بأنه من المرجح أن يكون أحد أجداده لأبيه قد وفد إلى مصر مع بربر المغاربة الذين أشار إليهم «ابن حوقل» في كتاباته .

ويذكر « السيوطي » في كتابه : (حسن المحاضرة) أن الإمام شرف الدين أبا عبد الله الصنهاجي المعروف بالبوصيري مغربي الأصل ، بوصيري المنشأ ، وأنه

ولد سنة **608**هـ ، وتوفي سنة **696**هـ وكان كما يقول «الشهاب بن حجر» : « من عجائب الله في النظم والنثر ، وإن لم يكن إلا قصيدته المشهورة نهج البردة لكفاه ذلك فخرا بين الشعراء . لقد ازدادت شهرة هذه القصيدة ، إلى درجة أن الناس كانوا يتدارسونها في البيوت والمساجد ، ودور العلم التي كانت موجودة وقتئذ » .

ولقد بدأ البوصيري حياته في مهنة الكتابة على الجبايات أو الضرائب ، إلا أن عدم أمانة المشتغلين معه جعلته يزهد في الوظائف ، بل ويزهد في مباهج الحياة ومتعها ، حيث رآها كلها إلى زوال لا يبقى إلا العمل الصالح ، فينصرف إلى حياة التصوف والانقطاع للعبادة ، وقد نظم في ذلك شعرا عن موظفي عصره قال فيه :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو حرا أمينا

ولعل ما وصل إليه من تفكير في الحياة وجدواها ، هو الذي جعله يفر إلى الإسكندرية ، ويلتقي بزعيم الصوفية هناك أبي العباس المرسي ، تلميذ الإمام أبي الحسن الشاذلي وخليفته في الطريقة الشاذلية . ويصحبه البوصيري ، ويتتلمذ عليه ، ويكون من مريديه وأتباعه في التصوف .

وهذا ما يشير إليه «علي مبارك» في (خططه التوفيقية) حيث يقول : « كان البوصيري وابن عطاء الله السكندري تلميذين لأبي العباس المرسي . فخلع على البوصيري لسان الشعر فكان بارعا فيه ، وخلع على ابن عطاء الله السكندري لسان النثر فكان مجيدا فيه . وقد لازم البوصيري أستاذه أبا العباس المرسي ، وأخذ عنه العلم والفضل ، ثم نهج بعد ذلك في شعره منهجا متميزا في التصوف ، حيث مدح النبي في نهج البردة وغيرها من قصائد أهمها : الهمزية في المدائح النبوية التي استهلها بقوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما جاوزتها سماء؟

وأخلص في الحب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ».

ويقال: إن السبب في نظم الإمام البوصيري لقصيدته البردة. هو إصابته بفالج[1] ألم به، وقد أعيا هذا الفالج أطباء عصره فلم يستطيعوا علاجه. ففكر البوصيري في نظم قصيدة يستشفع بها لدى الله ورسوله، وكانت هي قصيدة نهج البردة التي ما إن أتمها حتى برئ تماما من مرضه.

ولذلك.. فإن عددا من النقاد والمؤرخين، يرون أن هذه القصيدة إذا لم يكن عنوانها نهج البردة. فما أحراها أن يكون عنوانها: «البرأة»؛ لأن ناظمها «البوصيري» برئ من مرضه المسمى بالفالج بعد أن أتمها.

ولعل النقاد والمؤرخين يقصدون بذلك أولا: انتساب القصيدة إلى سبب نظمها وهو الشفاعة إلى الله برسوله، وثانيا لتمييزها عن قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى، فتكون بعنوان غير البردة، وهو «البرأة» مع أن البوصيري اختار لها عنوانا قبل نهج البردة هو «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» على طريقة أهل زمانه في الكتابة، إلا أن نهج البردة كانت من الشهرة بحيث بقيت في أذهان الناس، إلى درجة أن صاحب القصيدة البوصيري وقراءها قد نسوا هذا العنوان واستقر في الأذهان: نهج البردة.

والجدير بالذكر.. أن النقاد والمؤرخين قد أفاضوا في الحديث عن قصيدة الإمام البوصيري «نهج البردة» متتبعين مراحلها منذ كانت مجرد خاطرة في وجدان صاحبها البوصيري يريد أن يظهرها للوجود. إلى أن أصبحت عملا إبداعيا متكاملا، وضمن هذه المراحل ما يقال: إن البوصيري ظل ينشد متفرقات من أبياتها.. حتى إذا أتى الشطر الأول من بيت: «فمبلغ العلم فيه أنه بشر» فتوقف ولم يستطع أن يستكمله، وظل على هذه الحالة أياما عديدة إلى أن رأى- فيما يرى النائم- النبي ﷺ

(١) الفالج: الشلل الذي يصيب أحد شقي الجسم طولا.

يطلب منه قراءة شطر هذا البيت الذي توقف عندها فقرأها ، وهنا أتمها بعد أن استيقظ قائلا : « وأنه خير خلق الله كلهم» .

فأصبح البيت :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وتكتمل القصيدة في 180 بيتا ولتكون أعظم قصائده ، وليؤلف على وزنها الشعراء قصائدهم في مدح النبي وفي مقدمتهم في العصر الحديث أمير الشعراء : «أحمد شوقي» .

وهكذا .. عاش البوصيري أديبا صوفيا ، حتى توفي عام 696هـ بالإسكندرية ، ودفن في أرضها ، وأقيم له مسجد باسمه هناك ، بجوار أستاذه : أبي العباس المرسي.

* * *

الديريني

أن يجتمع لإنسان - أي إنسان - التصوف بإشراقاته الراقية ، واللغة بمعرفة أسرارها العالية ، والأدب بتنوع فنونه الرفيعة .. مع التقوى والورع والإيمان ، فلابد أن يكون هذا الإنسان موضع تقدير الناس واحترامهم وحبهم وإجلالهم ، يستوي في ذلك الكبير والصغير ، خاصة الناس أو عامتهم .

ولقد اجتمعت هذه جميعها للرجل الصالح: «عبد العزيز الديريني»، المتصوف، واللغوي، والأديب، تلميذ «أبي الفتح الواسطي»، وامتداد مؤسس الصوفية بالعراق «الإمام أحمد الرفاعي» ، ومعاصر قطبيها بمصر : السيد «أحمد البدوي» ، والسيد «إبراهيم الدسوقي» .

إن لوحة حياة هذا المتصوف الأديب اللغوي الصالح تشير إلى : أنه أحد مجددي القرن السابع الهجري، وأنه أحد مشايخ التصوف المعروفين في مصر بالزهد والورع، والتقوى والإيمان ، أو كما يذكره الإمام الشعراني في طبقاته المشهورة ، والمصنفات الكثيرة، في التفسير والفقه واللغة والتصوف ... وغير ذلك من الأعمال الجليلة...».

فالشيخ عبد العزيز الديريني إلى جانب كونه ملما بعلوم الدين فقيها بأمورها ، عليما بجوانب ديننا الحنيف ، فهو أيضا عالم بأسرار لغتنا العربية : نحوها وصرفها ، قواعدها وبلاغتها ، وبعد ذلك هو أديب مبدع ، له في المجال الأدبي آثار لا تمحى ، فقد عرف عنه نظم الشعر في أغراضه المختلفة ، بشكل يعده نقاد العرب ومؤرخوه في هذه الفترة واحدا من الشعراء المجيدين في الشعر .

إن إجادته للشعر يشير إليها «ابن تغري بردي» في كتابه : (المنهل الصافي) بما يفيد ذلك ، حيث يقول : « .. وللشيخ عبد العزيز الديريني نظم كثير شائع ، منه : منظومته التي ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم العلم والفضل» .

ثم يذكر ابن تغري بردي أمثلة لشعره في هذا الصدد ، منه قصيدة مطلعها :

وأذكر الآن رجالا كأنهم يزهو بها الزمان
مشايخي الأئمة الأبرار وإخوتي الأخيار

إلى أن يقول ، وكأنه يشير إلى الفترة التي عاشها من سنوات القرن السابع الهجري ، فيؤرخ لها قائلا :

لم يبق في الستين والستمئة من أشياخنا إلا فئة

ونظرة أخرى إلى لوحة هذا الرجل الصالح، كما تسجلها كتب السير والتراجم، ونقرؤها بأقلام مؤرخيها .. تقول : إن الشيخ عبد العزيز الديرينى ولد في قرية صغيرة من قرى مصر في وسط الدلتا ، هي قرية «ديرين» وهي بلدة تقع على بعد كيلو مترين من نبروه بمحافظة الدقهلية ، وإنه عاش عصر المماليك في مصر ، حيث عاصر في آخر أيامه الملك المملوكي «المنصور لاجين» . وكان هذا الملك متدينا ، كثير القيام والصيام ، قليل الأذى والشر ، ولذلك كان من الطبيعي أن يجل العلماء ، ويحترم رجال الدين ، ويقدر المتصوفين منهم خاصة في حق قدرهم ، فكان يسعى إليهم ويطلب ودهم ، وكانوا هم من جانبهم يحضرون مجالسه التي كانت تزخر بألوان من المناقشات الجادة ، والمفيدة حول الدين والدنيا .

كان من هؤلاء العلماء والمتصوفة الذين يتصدرون مجالس «الملك لاجين» .. الشيخ «عبد العزيز الديريني» ولم يكن هذا الشيخ الوقور يسعى إلى هذه المجالس إلا بطلب من لاجين ، وكثيرا - كما يذكر الرواة والمؤرخون - ما طلب إليه هذا الملك الحضور إلى القاهرة للانتفاع بعلمه .

ولقد بلغ تقدير الملك لاجين للشيخ عبد العزيز الديريني حدا : أنه أنشأ له مسجدا سماه باسمه وهو على قيد الحياة ، حتى يتيح له فرصة اللقاء بتلاميذه ومريديه في حلقات علمية وأدبية ، حتى إذا جاء من قريته «ديرين» إلى القاهرة توجه إلى هذا المسجد المقام حتى الآن بحي الروضة بالقاهرة ، وأقام فيه وصلى بالناس ، وعقد حلقاته .. ولذلك عرف هذا المسجد باسمه بعد وفاته إلى اليوم .

وتستطرد كتب التراجم والسير في حديثها عن الشيخ عبد العزيز الديريني ، فتذكر أنه كان كثير العلم ، واسع الاطلاع ، يصحبه الكثيرون من العلماء والفقهاء ، ومنهم من انتفع بعلمه وصحبته في مدن وقرى وسط الدلتا ، بجوار مسقط رأسه «ديرين» والتي يعرفها المؤرخون ببلاد الريف ، وفي ذلك يسجل الشعراني في طبقاته قائلا : « وكان مقر ومقام الشيخ عبد العزيز الديريني ببلاد الريف – وسط الدلتا – من أرض مصر – وكان الناس يقصدونه من سائر الأقطار العربية ، حاملين إليه مشاكلهم الفقهية التي يطلبون منه حلا لها » .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الديريني أخذ العلم عن عدد من العلماء والفقهاء ورجال التصوف ، وفي مقدمة هؤلاء رجل التصوف الأكبر : الإمام أبو الفتح الواسطي ، وفي ذلك يقول الديريني نفسه : لقد أشار سيدي «أحمد الرفاعي» ، على سيدي «أبي الفتح الواسطي» بالسفر إلى الإسكندرية ، فسافر إليها ، وفيها أخذ عنه ناس لا يحصون ، وكنت أنا واحدا منهم ، وكان سيدي أبو الفتح الواسطي مبتلى بالإنكار عليه ، فاجتمع علماء الإسكندرية وفقهاؤها وعقدوا فيما بينهم وبينه المجالس العلمية ، فكان يقرعهم الحجة بالحجة . ويسفه قولهم ، ويبين سوء رأيهم ، ويوضح قلة معرفتهم ، وكان خطيب مسجد العطارين من أشدهم عليه .

وفي إشارة عبد العزيز الديرينى ما يوضح أنه في هذا العصر كان هناك اهتمام بالعلم والعلماء ، على الرغم من تدهور الأحوال السياسية ، فيكفي أن تحكم مصر

بالمماليك وليس بأبنائها ، غير أن الاهتمام بالعلم وأهله كان من سمات هـذا العـصر ، وإلا فما معنى اهتمام السلاطين أنفسهم بـذلك ، واهـتمام العلـماء المـصريين أنفـسهم بغيرهم من العلماء العرب؟! وما معنى أن تقام هذه المناقشات بين علماء الإسكندرية وبين أبي الفتح الواسطى القادم بأفكار جديدة من العـراق لـو لم يكـن هنـاك اهـتمام علمى ؟! وربما كان ذلك اهتماما بالدين وعلومه ، فليس هناك ما يلوذ بـه المـصريون إبان المحن غير الرجـوع إلى الـدين وفهمـه فهـما صـحيحا ، ومعرفـة آراء مـن يـأتي بتفسيرات جديدة فيه وهو علم على أي حال .

كذلك تشير المصادر التاريخية إلى كرامات الديريني ، تلك التي تعددها الكتـب القديمة . ولعلنا نسجل ما كتبه «ابن تغري بردي» في كتابه : (المنهل الصافي) قـائلا : «طلب جماعة من فقراء الصوفية كرامة من الشيخ الديريني ، فقال لهم : « وهـل ثمـة كرامـة أعظـم مـن أن الله تعـالى يمـسك بنـا الأرض ولم يخـسفها ، وقـد اسـتحققنا الخسف»؟!

وقد توفي عبد العزيـز الـديريني سـنة 697هـ ودفـن بمـسجده بقريـة ديـرين بمحافظة الدقهلية ، وهو غير المسجد الموجود بحي الروضة بالقاهرة الـذي بنـاه لـه السلطان ليصلي فيه الناس بالقاهرة .

* * *

ابن دقيق العيد

يعتبر تقى الدين بن دقيق العيد من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث ولد هذا العالم الجليل بقوص عام خمس وعشرين وستمائة ، وتوفي عام 702هـ . ونشأ في بيئة علم وفضل، فقد كان أبوه مجد الدين بن دقيق العيد من أعلام المذهب المالكى ، فتفقه الابن على يديه ، ودرس جوانب هذا المذهب الذي يعنى بالحديث ، وتعلم على الإمام العز بن عبد السلام الذي كان شافعيا فتفقه على يديه ، ودرس جوانب المذهب الشافعى الذي كان يعنى بالرأي ، وبذلك اجتمع لديه دراسة المذهب المالكى والمذهب الشافعى ، إلى جانب دراسته للعلوم غير الفقهية على شيوخ وعلماء زمانه حتى نبغ في العلوم العقلية والنقلية معا ، فكان للعلوم جامعا ، وفي فروعها وفنونها وتفصيلاتها بارعا ، ذلك .. هو العالم المجدد تقي الدين بن دقيق العيد .

كان يتسم بشخصية فذة ، تجعل للعلم ورجاله هيبة وتقديرا، فكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وكان تقديره للإنسان إنما لعلمه وفضله ، وليس لجاهه أو سلطانه ، حتى إذا خاطب من الناس سلطانا منهم أو غير سلطان – ناداه بقوله : «يا إنسان» . أما إذا كان المخاطب فقيها كبيرا ناداه بقوله : « يا فقيه » ولا يسمح بهذه الكلمة إلا لأهل العلم والفضل من أمثاله .

وعلى الرغم من هذا .. فقد كان يجد تقديرا واحتراما من الملوك والسلاطين ؛ فعندما حضر إلى السلطان المملوكى «حسان الدين لاجين» قام إليه السلطان وقبل يده ، وهو يطلب رضاءه ودعواته ، فلم يزد الإمام تقى الدين على أن يقول له: «أرجوها لك بين يدي الله عز وجل» ، إشارة إلى أن هذا الصنيع من السلطان مهما كان لا يمحو المظالم التي يشكو منها الناس ، والتي يعلمها الله وحده الذي بيده

الحساب والعقاب.. وهكذا كان أسلوبه مع سائر الأمراء وكبار رجال الدولة وقتئذ، والسبب : التفاف الناس حوله ، وإنه في غنى عن السلاطين والأمراء .. إلى درجة أنه عندما عرض عليه منصب قاضى القضاة على المذهب الشافعى بمصر ، وهو منصب كان يتمناه أي عالم أو فقيه ، رفضه في إباء شديد ولم يقبله إلا بعد أن قيل له : إن لم تفعل ولوا فلانا أو فلانا، وهما رجلان لا يصلحان لهذا المنصب الحساس ، لسمعتهما التي كانت محل شك ، لما اقترفاه من أخطاء في حق الشعب .

وهنا رأى الإمام تقي الدين بن دقيق العيد أن القبول أصبح واجبا يحتمه عليه أمر دينه ، ومع هذا .. عزل نفسه أكثر من مرة غير آسف . فكانوا في كل مرة يعيدونه بعد تنفيذ ما يطلب ، وهو الرجل الصالح والخير حتى ظل في منصب قاضي القضاة إلى أن توفي عام اثنين وسبعمائة للهجرة . ورب سائل يسأل : ولماذا يرفض إمام على علم مثل ابن دقيق العيد أكبر المناصب ؟ .. أو أنه يعزل نفسه منها بين آونة وأخرى؟

إن السبب الذي تذكره المصادر والروايات هي : أن هذا الإمام كان غير راض عن حالة الحكم في عصره ، ولا عن استئثار أولئك المماليك . وهم الغرباء المجلوبون شراء بالمال بحكم مصر والشام . وليس ببعيد عن ذهنه هذه الفتوى التي أعلنها أستاذه الإمام «العز بن عبد السلام» بعدم شرعية تولي المملوك المشترى حكم بلاد المسلمين ، لهذا ولغيره من أسباب كان الإمام ابن دقيق العيد يأبى المنصب ، وإذا قبله كان يعزل نفسه منه حتى لا يقوم بعزله حاكم لا يعترف به أصلا بحكم الشريعة وكان يضمن قصائده مخبوء نفسه حيث يشير إلى ذلك قائلا :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بتهم

قد أنزلوا لأنام غير جنسهم ... منازل الوحش في الإهمال عندهم

فمالهم في توقي ضيرنا نظر ... ومالهم في ترقي قدرنا همم

على أن الباحثين يتساءلون : متى كانت شكوى ابن دقيق العيد ؟ هل كانت وهو لا يزال ببلده قوص لا يعرف أولئك الحكام ولا يعرفونه ؟ أم كانت شكواه بعد أن ضرب بقوله – في بلده قوص – عرض الحائط فتركها إلى القاهرة وبلغ فيها ما بلغ من السلطان ، فكان الفساد هو الفساد ، في قوص أو في القاهرة وكانت عواقب ذلك الفساد ذهاب الدنيا عن المسلمين ظاهرة لا تخفى على أحد، وهو ما أدركه وسجله الطبري في القرن الثالث الهجري ، فما بالنا وقد وصلنا إلى القرن السابع للهجرة ، حيث زاد الفساد وتفاقم وصار ينذر بالخطر ؟

والجواب على ذلك في كلمة واحدة : هو كل ذلك ، وهو ما انتهت إليه الأمة الإسلامية من فرقة وتمزق ، وسيادة للأجنبي على أرضها ، حتى ولو كان مملوكا يباع ويشترى ... ولعل الإمام تقي الدين بن دقيق العيد كان قد أدركه اليأس من صلاح الأحوال ، فسلم أمره لله يفعل ما يشاء ، فهو على كل شيء قدير ، وإلا فما معنى قوله في قصيدة طويلة منها :

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آس
فلا ترج الناس في حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا ترد شكوى إليهم فلا ... معنى لشكوى إلى قاس
لا رغبة في الدين تحميهم ... عنها ولا حشمة جلاس
فاهرب من الخلق إلى ربهم ... لا خير في الخلطة بالناس

وعلى الرغم من هذا الوضع المتدهور في الأمة الإسلامية ، نجد لابن دقيق العيد لفتات ولوامع تدل على أنه كان من أصحاب النزعات التجديدية في التفكير الإسلامي ، حتى إن عددا من المؤرخين اختاروه واحدا من المجددين في القرن السابع الهجري .

من هذه اللفتات : أنه لما جاء التتار إلى الشام عام ثمانين وستمائة ، ورد مرسوم السلطان إلى القاهرة بعد خروجه للقائهم أن يجتمع العلماء ويقرأوا البخاري ففعلوا ، حتى إذا بقي منه شيء أخروه إلى اليوم التالي ، ولما كان اليوم التالي رأوا ابن دقيق العيد في المسجد ، قال لهم : ما فعلتم ببخاريكم ؟ فقالوا : بقي منه جزء أخرناه لنختمه اليوم . قال لهم :«الفضل الحال من أمس العصر» وهو يعني ما فعلتم ببخاريكم أن ينبه إلى أن النصر قد تم للمسلمين قبل الانتهاء من قراءة البخاري ، وأنه تم بما أمر الله بإعداده من قوة ومن رباط الخيل ، وليس بقراءة أو نحوها من هذا التفكير .

على أن الغالب عند الدارسين والعلماء والفقهاء أن ابن دقيق العيد كان من مجددي الإسلام في القرن السابع الهجري لأمرين: أولهما ما ذكره في مقدمة « شرح الإمام» . من أنه يجب أن يجعل الرأي هو المأموم . والنص هو الإمام ، فترد المذاهب إليه وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه ، ولا يصح أن يجعل الرأي الذي هو فرع للنص أصلا يرد النص إليه بالتكلف والتخيل ، حيث يقول : « ويحمل على أبعد المحامل ، بلطافة الوهم وسعة التخيل ، ويرتكب في تقرير الآراء الصعب ، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول». والأمر الثاني .. انتصاره لتلك المختصرات المعقدة التي عرفت فيما بعد باسم : المتون . وكان ابن الحاجب وأقرانه من المتأخرين هم أول من سن هذه البدعة في العلوم . وقد اختلف علماء القرن السابع الهجري في أمر هذه المختصرات ، فكان ابن دقيق العديد من أنصارها ، ومن أنصار الاعتماد عليها في التعليم .

ولعله بانتصاره لهذه الطريقة التي قدرت لأولي الغلبة بعده ، وكان أصحابها هم المجددون من المسلمين عبر القرون .. ولعل هذا كان من أسباب اتفاقهم على أنه من مجددي القرن السابع الهجري .. وعن سبب تسمية جده لأبيه «دقيق العيد» كما

يسجل معاصره «الأدفوي» : أن هذا الجد كان عليه في يوم العيد طيلسان شديد البياض ، فقال بعضهم لبعض : كأنه دقيق . فلقب به هو وأبناؤه وأحفاده .

ولعل خير ما نختم به الحديث عن ابن دقيق العيد هو : ما جاء في وصفه على لسان الأدفوي ، حيث يقول : « هو التقى ذاتا ونعتا ، والسالك الطريق التى لا عوج فيها ولا أمتا ، والمحرز من صفات الفضل فنونا مختلفة وأنواعا شتى والمتحلي بالحالتين الحسنيين صمتا وسمتا ..».

ولقد توفي هذا العالم الجليل سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بسفح المقطم ، وكان يوم وفاته يوما مشهودا ، سارع الناس إليه ، حتى وقف جيش من البشر ينتظر الصلاة عليه ، ورثاه جماعة من الأدباء والعلماء بالقاهرة وقوص ، مؤكدين أنه كان صالحا وتقيا عالما ، وفقيها ، أديبا وشاعرا .

* * *

ابن عطاء الله السكندري

ابن عطاء الله السكندري : من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث توفي عام 709هـ وعاش سنوات طويلة من القرن السادس مزج علوم الباطن بعلوم الظاهر، ولذلك .. فالحديث عنه هو حديث عن قطب من أقطاب الصوفية . أتقن إلى جانب علوم الباطن – التي هي من صميم التصوف – وعلوم الظاهر من شريعة وفقه ، ومع الاثنين كان له اهتمامات أدبية واضحة يستطيع أن يلمحها القارئ لكتاباته من مجرد الصياغة الأدبية الرفيعة المستوى . وأن يكون له تلاميذ ومريدون ليس على مستوى مصر وحدها ، أو العالم العربي فحسب ، وإنما على مستوى العالم الإسلامي كله ..

هذا الصوفي الجليل ، مصري أصيل ، ولد في الإسكندرية ، وبها كانت نشأته وتربيته وتعليمه وتثقيفه على أيدي علمائها وفقهائها ، وعلى قطب الصوفية فيها : أبي العباس المرسى ، شيخ الطرق الصوفية في العالم العربي الإسلامي ، وخليفة مؤسسها أبي الحسن الشاذلي تعلم وتفقه .

وتاريخ ابن عطاء الله السكندري يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الحركة الفكرية بوجه عام ، وتاريخ التصوف في القرنين : السادس والسابع الهجريين بوجه خاص ، حيث انتشر فيهما التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساسا لفهم الدين الإسلامي فهما روحيا ، بعد أن ظلوا يناضلون التصوف وقتا طويلا ، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله عز وجل هي التفرغ لعبادته ، والفناء في حبه ، والاتصال به عن طريق تصفية وتنقية القلب من كل أدران الشك، والسمو بالروح والنفس .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الذي وضح فكرتها ، وصاغها في قالب علمي ، كما أنه كان أول من ترجم لأستاذه أبي العباس المرسى ، ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبي الحسن الشاذلي ، فأسدى لهذه الطريقة ولقطبيها أجل الفوائد ، كما أتاح لأتباعها معرفة الكثير عن هذه الطريقة وعن أقوال وتعاليم قطبيها الكبيرين .

لكن ابن عطاء الله السكندري كان نموذجا وحده بين المتصوفة . فقد كان يجمع بين العلمين : علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق ، وكان - بشهادة المؤرخين من العلماء والفقهاء - مبرزا في الاثنين معا . فكان بهذه الصفة يستطيع أن يخاطب الجميع : صوفيين أو غير صوفيين ، غير أن هذا المزيج من علم الظاهر وعلم الباطن لم يأت هكذا فجأة ، بل سبقته خطوات وخطوات .

إن من عجيب الأمور في سيرة هذا العالم الصوفي الجليل : أنه نبغ أول حياته في علوم الظاهر ، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طريقتهم وعلومهم ، إلى أن أتيحت له الفرصة للتعرف على قطبها أبي العباس المرسي ، ومنذ ذلك التاريخ آمن بطريقتهم وعلومهم .

لكن كيف كانت البداية في دخول عالم التصوف ؟

لقد بدأ ابن عطاء الله السكندري مريدا بعد أن حصل من العلم قدرا وفيرا ، وقد نبغ في دراسة الفقه والشريعة والأدب وعلوم الظاهر عامة . ثم بعد فترة التعارف- التي أشرنا إليها- مع أبي العباس، لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذه ، وبعد وفاة أبي العباس المرسى انتقلت إليه إمامة الطريقة الشاذلية ، فجلس مجلس أستاذه يفسر القرآن تفسيرا صوفيا ، ويلقي المواعظ والدروس بين أتباع هذه الطريقة .

ومن الإسكندرية- التي ولد فيها ونشأ وتعلم - انتقل إلى القاهرة . ليتخذ له عمودا من أعمدة الأزهر الشريف .يلقي فيه دروس الصوفية ، ويشرح آدابها

وتعاليمها ، فكان – كما تذكر الروايات والمصادر إلى جانب علمه الواسع في الدين عامة والصوفية خاصة – أديبا حلو الحديث ، مشرق العبارة ، مما كان لذلك أكبر الأثر في نفوس سامعيه ، ونفوس قرائه بعد ذلك ؛ ولهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلال .

وطبيعي .. أن يكون عالم هذا شأنه أن يسمع به السلطان المملوكي «حسام الدين لاجين»، فشاقه أن يراه ويستمع إليه ؛ ليتأكد من صدق ما يسمع عنه ، فاستدعاه إلى مقر السلطانية .

وعن خبر هذه المقابلة يسجل ابن عطاء الله السكندري جانبا منها ، وهو الخاص بالمواعظ التي ألقاها في حضرة هذا السلطان . قال : «لما اجتمعت بالسلطان «حسان الدين لاجين» رحمه الله كان على ما عرفت يريد أن يستمع إلي ، والحق أنني سعدت بذلك ، فقد كانت فرصة نادرة أستطيع فيها توصيل ما أشعر به من آراء ، حيث بدأت الحديث معه بقول : «يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، حتى انشرحت قلوب الرعايا بكم .. والرخاء أمر لا يستطيع الملوك والسلاطين تكسبه واستخلاصه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء ..» .

فقال السلطان لاجين موجها سؤاله إلى ابن عطاء الله : «وما الشكر الذي تراه؟» .

قال ابن عطاء الله : «شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان».

قال السلطان : « وكيف يكون الشكر في كل واحدة من هذه ؟» .

قال ابن عطاء الله : أما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله سبحانه وتعالى ، حيث قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] .

(١) الضحى : ١١ .

وأما شكر الأركان فمعناه : طاعة الله عز وجل ، حيث قال تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾[1] .

ويبقى شكر الجنان ، وهو الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، حيث قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[2] .

قال السلطان لاجين : «وما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟» .

قال ابن عطاء الله : «إذا كان ذا علم فبالتوجيه والإرشاد والتبيين ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والعطاء والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه وسلطان فبإظهار العدل فيهم، ودفع الظلم عنهم ، وعدم الإضرار بهم » .

ويسر السلطان لاجين غاية السرور لمقابلة هذا العالم الجليل ، وسماعه منه ما يصلح أمر نفسه حيال الخالق والرعية ، ولعل سبب هذا السرور أسلوب ابن عطاء الله الواضح الصريح المعبر ، المعتمد على الحجة والمنطق ، حتى نفذ إلى قلبه واستحوذ على إعجابه .

ولا يقل أسلوب ابن عطاء الله السكندري في الحكم والأقوال المأثورة .. عن أسلوبه في الحديث والمناقشة ، ولعله بلغ الذروة في كتابه المعروف بالحكم العطائية ، إبداعا وتركيزا .. تحليلا وشرحا . وكان له فيها منهج خاص حيث كان لا يعنى بالمعنى وحده ، ولا بالأسلوب فحسب ، بل كان يعنى أيضا بالبيان ، على اعتبار أن للبيان سحرا خاصا ، لهذا كان يتخذ الألفاظ ذات الجرس الخاص ، والنغم الموسيقي المؤثر ، ومن هنا كان لحكم ابن عطاء الله سحر يؤثر في نفوس سامعيه وقارئيه ، كما يقرر الدكتور «جمال الدين الشيال» .

---

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) النحل : ٥٣ .

ولهذا .. ظل كتاب «الحكم» لابن عطاء الله مصدرا علميا يقرأ قرونا طويلة في الأزهر الشريف ، وفي جامعة الزيتونة بتونس ، وفي جامعة القرويين بفاس . فإلى جانب أنه يقدم جانبا من فكر هذا العالم الصوفي الجليل ، فهو يقدم علما من علوم الصوفية مكتوبا بصيغة أدبية عالية المستوى . يقول في إحدى حكمه عن الله عز وجل، والتي تبين منهجه الفريد ، الذي يراعي التدرج في تفصيل أجزاء هذه الحكمة أو الحقيقة على النحو التالي :

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي أظهر كل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي ظهر بكل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي ظهر في كل شيء؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو أظهر من كل شيء؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو أقرب إليك من كل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟!

وهكذا نراه يراعي التدرج في تقديم أجزاء الحقيقة المراد معرفتها.

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله السكندري عن غيره من المتصوفة .. هي : في كونه لم يدخل طريق الصوفية إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة الإسلامية – وهي من علوم الظاهر – ولهذا .. كان يعتز بهذه المعرفة ، على الرغم من خشيته من أن تمنعه الشريعة من مواصلة طريق التصوف أو تمنعه من القربى من شيخه وأستاذه أبي العباس المرسي .

ولعله مر – بسبب ذلك– في أول أمره بفترة قلقة مضطربة ، حيث كانت نفسه تتأرجح بين الطريقين : علوم الظاهر ، وعلوم الباطن . إلى أن أخذ بيده أستاذه

المرسى أبو العباس وأنقذه من هذه الحيرة وذاك القلق ، مشيرا عليه بأنه يمكن أن يجمع بين العلمين معا ، وأن يبرز فيهما أيضا .

ولعل هذه النصيحة من شيخه وأستاذه أبي العباس المرسى كان من نتائجها أن تزودت معارفنا بكتابات عالم جليل يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن في مزج فريد، بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر ، بل نراهما يعاون كل منهما الآخر على بلوغ الحقيقة .

ولقد توفي ابن عطاء الله السكندري بالقاهرة سنة تسع وسبعمائة من الهجرة ، ودفن فيها ، وليس في مسقط رأسه الإسكندرية ، وضريحه معروف بجبانة الإمام الليث ، وله بالإسكندرية مسجد منسوب إليه ، لكن لم يضم رفاته الطاهر .

* * *

تقي الدين بن تيمية

الفقيه ، المحدث ، المتكلم ، الناقد ، المحقق : تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني ، أحد مجددي القرن السابع الهجري ، ولد في حران بسوريا ، ولما فر والده من عسف وظلم المغول لجأت أسرته إلى دمشق ، وفيها أقبل الفتى أحمد ابن تيمية على العلوم الإسلامية يحصلها ، وعلى دروس والده وعلماء عصره يتدارسها، وقد كان من الذكاء ، وقوة الحافظة إلى درجة أنه ألم بالفقه والحديث والتفسير والحساب ... وغيرها وهو لم يزل في العاشرة من عمره ، وناظر وناقش وحادث وأفتى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وولي بعض المناصب وعمره واحد وعشرون عاما ، ولقب بمحيي السنة ، وإمام المجتهدين وهو ابن ثلاثين سنة... وكان من التقوى والورع والزهد حتى لم تستغرقه الدنيا وأعراضها ، وكان من الشجاعة والإقدام والجرأة بحيث لم يعرف التملق والنفاق سبيلا إلى سلوكياته وأحكامه ، ولهذا .. كان له خصوم كثيرون كادوا له عند الحكام ؛ فسجن أكثر من مرة حتى في واحدة من مرات سجنه توفي.

ورجل على هذا النحو من التاريخ المجيد مطالب والأمر كذلك بأن يستزيد باستمرار من العلم، أن يدرس ويتأمل ، ويتقن أدوات الجدل وأساليب أهل الكلام. وكان يدرك مقدما أنه سيلقى بلاء كثيرا .

فمن أين يبدأ بعد أن تسلح بعلوم الدين والدنيا ؟.. هل يبدأ من مقولة أن رقي الأمم رهين بأن تعيش في سياج من الأمن والعدل ؟.. لعله يفعل حتى لا يملأ الذعر والرعب القلوب .

على أن تفكيره لم يطل ؛ فقد فرضت المعارك نفسها عليه قبل أن يختار معاركه مع الفساد . وتزداد همومه حيث يظن أنه مسئول أمام الله عن إحياء هذا الدين في عصر تغشاه البدع والضلالات ، والأساطير والخرافات ، وتزداد مسئوليته حيث تتسع حلقته ويكثر تلاميذه ، لقد أحبه تلاميذه فلزموه ، وأحبه شهود حلقته من طلاب علمه فأكبروه .

ولهؤلاء وهؤلاء يدعو إلى مقاومة ما يشوه حقيقة الدين .. يدعوهم إلى العمل على تطهير المجتمع من رذائله ، يدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذا واجب المسلم ، واحترم منه الولاة والأمراء هذا الجهد فهابوه وأكبروه وأقروا كل ما يفعله ، معلنين أنه ينفذ ما يريدون ، إلا أن مكانته عند الولاة ومكانته عند الرعية أثارت حقد بعض العلماء فبدأوا يكيدون له ويدسون . وانتهزوا فرصة نشره لرسالة الحموي والوسطية كي يكيلوا له الاتهامات . وما عاد يشغل دمشق وسوريا غير معارك ابن تيمية وخصومه في وقت كانت جحافل التتار تزحف لتحتل سوريا. عائدين بكل ألوان الفسق والفجور . وأبناء البلاد ممزقون منهزمون ، فارون من تنكيل التتار بهم ولم يبق في دمشق غير نفر قليل ، منهم ابن تيمية الذي استنفر همم الرجال ، وراح يطوف بالطرقات والمساجد يحض الناس على الجهاد، وفي الوقت نفسه يقابل سلطان التتار طالبا منه انسحابا غير مشروط ، وألا يبغي أو يتجبر على المسلمين ، فهذا هو قضاء الإسلام الذي يعتنقه ذلك السلطان التتري كمسلم ، ويعده السلطان التتري بأنه سيسير في الناس سيرة مسلم حسن الإسلام حتى ينسحب هو ورجاله إلى بلاده بفضل جهود ابن تيمية وتمسكه بالحق ، مما ضاعف من مكانته في قلوب الناس جميعا .

وتمضى فترة .. بعدها تهاجم فلول التتار الشام ومصر ، ويتحرك السلطان قلاوون من مصر لطرد هذه الفلول ويعاونه جيش الشام ومعه ابن تيمية ، حتى يلوذ التتار بالفرار وابن تيمية يستنهض القوى صائحا : لا تتركوهم ، ويطاردهم العسكر

حتى يرحلوا جميعا . وماذا كان ينتظر ابن تيمية بعد كل هذه الجهود الدينية والدنيوية في عصر كعصره؟.. لا شيء! سوى السجن.. نعم السجن ، حيث دس له العلماء عند السلطان فسجنه، ولم تشفع له تدخلات شيوخ الحنابلة ولا رفيق نضاله «الأمير سلار»، واجتمع ممثلو مذاهب المالكية والشافعية والحنفية في القاهرة على أن يخرجوه من السجن شرط أن يرجع عما أعلنه منذ سنوات في دمشق عن صفات الله ، ويرفض العدول مفضلا البقاء في السجن على الاعتذار عن أمر لم يعرفه أبدا .

ويخرج من السجن بعد تدخل أمير العرب ، ويبقى في القاهرة بين مؤيديه من أتباع مذهب ابن حنبل ، لكن العلماء إياهم يدبرون له مكيدة أخرى تجعل السلطان «بيبرس» يطلب إعدامه ، فيخففه صديقه حاكم القاهرة «الأمير سلار» إلى السجن . ولا يفرج عنه حتى عاد السلطان قلاوون إلى ملكه ، ويظل في القاهرة منصرفا إلى دروسه لطلابه ، حتى يعود إلى دمشق فيعيد النظر إلى ما كان قد كتبه أو أفتى به ، فيحكمه ويحاول الاجتهاد والتجديد على ضوء مذهب ابن حنبل ومذاهب مالك وأبي حنيفة والشافعي .

لكن خصومه يتربصون به ويدسون له ، فيسجن في قلعة دمشق . ويفرج عنه ويسجن مرة ثانية حيث استغلوا فتواه بمنع زيارة قبر الرسول - ﷺ- ليثيروا عليه العامة والخاصة ، ويودع في السجن من جديد ويبقى فيه عامين حتى تفيض روحه بين جدران سجنه ، ويصمت هذا الفقيه العظيم .. ولا يصمت فكره الذي ما زال يملأ الدنيا علما وفضلا .

ولعلنا نستأنس ببعض ما سجلته دائرة المعارف الإسلامية التي حررتها أقلام علماء أجانب اهتموا بالثقافة الإسلامية ورموزها ، وترجمها إلى العربية عدد من كبار علمائنا ومثقفينا يتقدمهم «الدكتور عبد الحميد يونس والأستاذ إبراهيم زكي خورشيد والأستاذ أحمد الشنتناوي»، حيث سجلت صفحات هذه الدائرة الموسوعية

معلومات مهمة عن ابن تيمية ، نختار منها القليل ، ومنه أن ابن تيمية كان يخالف أئمة الفقهاء في مسائل كثيرة ، مثال ذلك :

- كان يرفض العمل بالتحليل الذي تستطيع به امرأة طلقت طلاقا بائنا أن تتزوج مرة أخرى من زوجها بعد أن يعقد لها على رجل آخر «محلل» على أن يطلقها هذا الرجل بعد ذلك مباشرة .
- هجر المرأة أثناء الطمث باطل .
- المكوس التى لم يرد بها نص في القرآن مقبولة ، والذي يدفعها يعفى من الزكاة .
- ليس من الزندقة أو المروق أن ترى رأيا مخالفا للإجماع .

وطعن كذلك على الرجال الذين يعدون حجة في الإسلام .

فقد هاجم «الغزالي» بشدة. كما هاجم «محيى الدين بن عربي وعمر بن الفارض» والصوفية بوجه عام . أما فيما يختص بالأول فقد طعن في آرائه الفلسفية التي ضمنها كتابيه : (المنقذ من الضلال) ، و(إحياء علوم الدين) الذي يحوي عددا كبيرا من الأحاديث غير الموثوق بها ، فقال : «المتكلمون والصوفية في واد واحد» ، وحارب في حماسة بالغة الفلسفة اليونانية ومنتحليها من المسلمين ، وعلى الأخص «ابن سينا وابن سبعين» : ألا تؤدي الفلسفة إلى الكفر ؟ ألم تكن في الأغلب مصدر الفرق المختلفة التي نشأت في صدر الإسلام ؟

ولم يتفق علماء المسلمين في سنية ابن تيمية ؛ ومن بين الذين يرمونه بالزندقة – على أقل تقدير– «ابن بطوطة ، وابن حجر الهيتمي وتقي الدين السبكي وابنه عبد الوهاب ، وعز الدين بن جماعة وأبو حيان الظاهري الأندلسى» ... وغيرهم، ومع ذلك فربما كان عدد الذين يمدحونه أكثر من عدد الذين يذمونه ، فمن بين الذين يمتدحونه : تلميذه ابن قيم الجوزية ، والذهبي ، وابن قدامة ، والصرصري الصوفي ، وابن الوردي ، وإبراهيم الكوراني ، وعلي القاري الهروي ، ومحمود الآلوسي» ... وغيرهم .

ونحن نعلم أن مؤسس الوهابية اتصل بعلماء دمشق الحنابلة ، فمن الطبيعي أن يكون قد استفاد من مؤلفاتهم ، وعلى الأخص من تعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية . وأصول هذا المذهب الجديد هي التي كان يحارب من أجلها ابن تيمية المتكلم الحنبلي طيلة حياته ، وانتهى إلينا من بين آثار ابن تيمية الخمسمائة التي يقال إنه صنفها أكثر من ستين مصنفا هي :

1- رسالة الفرقان بين الحق والباطل.

2- معارج الوصول . (وهو تفنيد لقول الفلاسفة والقرامطة الذين يذهبون إلى أن الأنبياء قد يكذبون في بعض الأحيان) .

3- التبيان في نزول القرآن .

4- الوصية في الدين والدنيا (ويطلق عليه «الوصية الصغرى») .

5- رسالة في النية في العبادات .

6- رسالة العرض : هل هو كري أم لا ؟

7- الوصية الكبرى .

8- الإرادة والأمر .

9- العقيدة الواسطية .

10- المناظرة في العقيدة الواسطية .

11- العقيدة الحموية الكبرى .

12- رسالة في الاستغاثة .

13- الإكليل في المتشابه والتأويل .

14- رسالة الحلال .

15- رسالة في زيارة بيت المقدس .

16- رسالة في مراتب الإرادة .

17- رسالة في القضاء والقدر .

18- رسالة في الاحتجاج بالقدر .

19- رسالة في درجات اليقين .

20- كتاب بيان الهدى من الضلال في أمر الهلال .

21- رسالة في سنة الجمعة .

22- تفسير المعوذتين .

23- رسالة في العقود المحرمة .

24- رسالة في معنى القياس .

25- رسالة في السماع والرقص .

26- رسالة في الكلام على الفطرة .

27- رسالة في الأجوبة عن أحاديث القصاص .

28- رسالة في رفع الحنفي يديه في الصلاة .

29- كتاب مناسك الحج .

30- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

31- الواسطة بين الخلق والحق .

32- رفع الملام عن الأئمة الأعلام .

33- كتاب التوسل والوسيلة .

34- كتاب جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من : أن ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[1] ... تعدل ثلث القرآن .

35- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (وهو في الرد على رسالة بولس أسقف صيدا وأنطاكية) .

---

(١) الإخلاص : ١ .

36- الرسالة البعلبكية .

37- الجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبوية .

38- تفسير سورة النور .

39- كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول .

40- تخجيل أهل الإنجيل . (وهو رد على النصرانية) .

41- المسألة النصيرية . (وهي فتوى ضد النصيرية في الشام) .

42- العقيدة التدميرية .

43- اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم . (وهو في الرد على اليهود والنصارى) .

44- جواب عن لو .

45- كتاب الرد على النصارى.

46- مسألة الكنائس .

47- الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان .

48- العقيدة المراكشية .

49- مسألة «العلو» في التحدث عن الله .

50- نقد تأسيس الجهمية .

51- رسالة في سجود القرآن .

52- رسالة في سجود السهو .

53- رسالة في أوقات النهي والنزاع في ذوات الأسباب ... وغيرها .

54- كتاب في أصول الفقه .

55- كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين .

56- مسألة الحلف بالطلاق .

57- الفتاوى .

58- كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية .

59- جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار .

60- رسالة العبودية .

61- رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور .

62- رسالة المظالم المشتركة .

63- الحسبة في الإسلام .

* * *